

جامعة النجاح الوطنية
كلية الدراسات العليا

اليأس

(دراسة قرآنية)

إعداد

فاطمة أحمد محمود الحاج حسن

إشراف

د. محسن الخالدي

قدمت هذه الأطروحة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في أصول الدين
بكلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية في نابلس، فلسطين.

2011م

اليأس

(دراسة قرآنية)

إعداد

فاطمة أحمد محمود الحاج حسن

نوقشت هذه الرسالة بتاريخ 2011/12/1م، وأجيزت.

أعضاء لجنة المناقشة

التوقيع

.....
محمد الخالدي

1. د. محسن الخالدي / مشرفاً ورئيساً

2. د. حاتم التميمي / ممتحناً خارجياً

3. د. عودة عبد الله / ممتحناً داخلياً

الإهداء

إلى كل من أضاف جهداً ومعنىً إلى حركة الحياة ليقتل اليأس في

مهده، حيث تنطلق الأمة لتصوغ حياتها من جديد

إلى روح والدي الحبيب رحمه الله تعالى

إلى مقام أمي الغالية

إلى زوجي الغالي أبي المجد

أهدي هذا الجهد، سائلة الله سبحانه أن يتقبله في أعمالي

الصالحات

الشكر والتقدير

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، وبعد:
فإني أتقدم بجزيل الشكر وعظيم الامتنان لأستاذي الفاضل الدكتور محسن الخالدي حفظه الله ورعاه؛ لتفضله بقبول الإشراف على هذه الرسالة؛ ولما أظهره من حسن التعامل والتوجيه والإرشاد والمتابعة؛ من أجل إخراج هذا العمل بهذه الصورة، فجزاه الله عني كل خير، ونفع به الإسلام والمسلمين.
وإنه من الواجب عليّ في هذا المقام أن أتقدم بالشكر والامتنان لعضوي لجنة المناقشة؛ الدكتور حاتم جلال التميمي والدكتور عودة عبد الله عودة لتكريمهما بمناقشة هذه الرسالة، سائلة المولى عز وجل أن يبارك في علمهما وأن ينفع بهما الإسلام والمسلمين.
كما لا أنسى أن أقدم شكري وتقديري لعمي العزيز الشيخ أبي ربيع حفظه الله؛ لما أبداه لي من ملحوظات ولفات ومتابعات لغوية، فبارك الله فيه وأبقاه ذخراً للإسلام.
وإني أشكر كل من أبدى لي نصيحة، أو أعارني كتاباً، أو لفت نظري إلى معلومة أو جزئية تكمل هذا البحث، وأسأل الله تعالى أن يجعل ذلك في ميزان حسناتهم جميعاً، والحمد لله رب العالمين.

الإقرار

أنا الموقعة أدناه، مقدمة الرسالة التي تحمل العنوان:

اليأس (دراسة قرآنية)

أقر بأن ما اشتملت عليه هذه الرسالة إنما هو نتاج جهدي الخاص، باستثناء ما تمت الإشارة إليه حيثما ورد، وإن هذه الرسالة ككل، أو أي جزء منها لم يقدم من قبل لنيل أي درجة أو لقب علمي أو بحثي لدى أي مؤسسة تعليمية أو بحثية أخرى.

Declaration

The work provided in this thesis, unless otherwise referenced, is the researcher's own work, and has not been submitted elsewhere for any other degree or qualification.

Student's Name:

اسم الطالبة:

Signature:

التوقيع:

Date:

التاريخ:

فهرس المحتويات

الصفحة	الموضوع
ج	الإهداء
د	الشكر والتقدير
هـ	الإقرار
و	فهرس المحتويات
ط	الملخص
1	مقدمة
2	الدراسات السابقة
3	أهمية الدراسة
3	أسباب اختيار الموضوع
4	أسئلة الدراسة
4	أهداف الدراسة
5	منهجية الدراسة
5	حدود الدراسة
6	الفصل الأول: تعريف اليأس وبيان دلالاته في السياق القرآني
7	المبحث الأول: تعريف اليأس
7	المطلب الأول: اليأس في اللغة
10	المطلب الثاني: اليأس في الاصطلاح
11	المطلب الثالث: اليأس عند علماء النفس
12	المبحث الثاني: اليأس في السياق القرآني
12	المطلب الأول: عرض مادة (يأس) في القرآن الكريم
13	المطلب الثاني: الملحوظات العامة لورود مادة (يأس) في القرآن الكريم
14	المطلب الثالث: معاني مادة (يأس) في القرآن الكريم
15	المطلب الرابع: اللطائف واللفظات لورود مادة (يأس) في القرآن الكريم
17	المبحث الثالث: نظائر اليأس في القرآن الكريم
17	المطلب الأول: القنوط
20	المطلب الثاني: الإبلاس

الصفحة	الموضوع
21	المطلب الثالث: الخيبة
23	المطلب الرابع: السأم
24	المطلب الخامس: الهلع
26	الفصل الثاني: صور اليأس وموقف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام منه
27	المبحث الأول: صور اليأس
27	المطلب الأول: اليأس من رحمة الله
30	المطلب الثاني: اليأس من إنزال الغيث
33	المطلب الثالث: يأس الكفار من الآخرة
37	المطلب الرابع: يأس الكفار من دين الله
41	المطلب الخامس: اليأس من الإقناع
45	المطلب السادس: اليأس من المحيض
48	المبحث الثاني: موقف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من اليأس
57	الفصل الثالث: أسباب اليأس وجزاء اليائسين
58	المبحث الأول: أسباب اليأس
58	المطلب الأول: الكفر والمعاصي
65	المطلب الثاني: الابتلاءات والمحن
71	المبحث الثاني: جزاء اليائسين
71	المطلب الأول: استحقاقهم غضب الله تعالى
72	المطلب الثاني: استحقاقهم العذاب الأليم
74	المطلب الثالث: معاقبتهم بنهي المؤمنين عن موالاتهم
76	الفصل الرابع: سبل الوقاية والعلاج من اليأس
78	المبحث الأول: الإيمان الصادق المتمثل بالصبر والعمل الصالح
82	المبحث الثاني: المحافظة على الصلوات في أوقاتها
85	المبحث الثالث: التوكل على الله مع الأخذ بالأسباب
88	المبحث الرابع: التمسك بالرجاء والأمل المحمود
92	المبحث الخامس: الإيمان بالقضاء والقدر
95	المبحث السادس: حسن الظن بالله تعالى
97	المبحث السابع: الإكثار من الذكر والدعاء

الصفحة	الموضوع
102	المبحث الثامن: الاستجابة لأمر الله تعالى بالانتهاء عن اليأس والقنوط
106	المبحث التاسع: الإيمان بسعة رحمة الله تعالى
110	الخاتمة
112	المصادر
113	مسرد الآيات القرآنية
122	مسرد الأحاديث النبوية
123	مسرد الأعلام
124	قائمة المصادر والمراجع
b	Abstract

اليأس

(دراسة قرآنية)

إعداد

فاطمة أحمد محمود الحاج حسن

إشراف

د. محسن الخالدي

الملخص

هذه الرسالة دراسة قرآنية، وهي خطوة على طريق التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، تناولت موضوع اليأس من خلال آيات القرآن الكريم، وقد قُسمت إلى أربعة فصول، ومقدمة وخاتمة، كان الحديث في المقدمة عن أهمية هذه الدراسة، وإبراز قيمتها من خلال الحديث عن ما يواجه الأمة الإسلامية من مكر وعداء عالمي، صنع محناً وصعوبات سرّعت في ظهور اليأس والإحباط بين أبناء هذه الأمة، وأما بالنسبة للفصول، فقد كان الفصل الأول منها يدور حول معنى اليأس في اللغة والاصطلاح والسياق القرآني، ثم يليه الفصل الثاني بعنوان: صور اليأس وموقف الأنبياء منه، وحمل الفصل الثالث منها أسباب اليأس وجزاء اليائسين، أما الفصل الرابع فقد حوى سبل الوقاية والعلاج التي تحمي الإنسان من شرور اليأس وأضراره.

وكانت كتب التفسير والحديث والأخلاق واللغة والتراجم هي الكتب والمراجع المعتمدة في هذه الرسالة، مع التركيز على كتب التفسير وأقوال المفسرين من علماء هذه الأمة.

وتضمنت الخاتمة عدة نتائج، منها:

1- أن هناك علاقة وثيقة، وتلازماً قوياً بين الكفر واليأس؛ ذلك أنه لا ييأس الإنسان من رحمة الله إلا حين يكفر قلبه، وينقطع ما بينه وبين ربه، وكذلك هو لا يكفر إلا وقد يئس من اتصال قلبه بالله، ولم يعد له إلى رحمة الله سبيل.

2- أن كل ما جاء في القرآن الكريم من يأس فهو بمعنى القنوط، إلا آية الرعد ﴿أَفَلَمْ يَأْيَسِ

الَّذِينَ ءَامَنُوا أَن لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ ، جاءت بمعنى: العلم.

3- أن ارتكاب المعاصي والذنوب كفيل بأن يوقع الإنسان في أوهام اليأس والقنوط، في حال عدم توبته، وعدم رجوعه إلى الله سبحانه وتعالى.

مقدمة

الحمد لله الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم، وصلّى الله على النبي المبعوث رحمة للعالمين، وبعد:

فهذا البحث بعنوان: (اليأس دراسة قرآنية) قدّمته بين يدي تُلّةٍ مباركة من أهل العلم والاختصاص، راجيةً به ثواب الله عز وجل، وأن يحسبَهُ من أعمال الصالحات التي ألقى بها وجهه الكريم، ولعلي أضفت لَبِنَةً أُخرى إلى البناء الضخم، والصرح الشامخ الذي يشيّدُه أبناء الإسلام العظيم؛ ليواجهوا به المكر العالمي، والكيد المتسارع لغرس اليأس والقنوط في أرواح الأمة وقناعاتها.

والمتدبر لحركة رحي هذا المكر، وهذا الكيد، فإنه يرى - دونما خفاء ودونما لبس - أن حركة الكفر وأطنابه تُتصَبُّ لتخذيل الأمة وأبنائها، وتيئيسهم من الثبات والنصر، ومن العودة إلى سالف العهد الزاهر، والتاريخ المشرق لأمة الإسلام.

فإن في فتح أبواب الحضارة المادية أمام أبناء الدين، وتغليفيها بالفكر الانحلالي والشهوات القاتلة، سلخاً عن التبعية الحقيقية، والمعية الصادقة لدين الله، والنتيجة الحاصلة عندئذ تبعية مسخٍ، ومعية ملوثة لكل ما هو مسموم، وهذا يحول بين المرء وربّه وتوفيقه وهداه، حيث ينسلُّ الشيطان وجنّده عند ذلك إلى أرواح الأمة وأفئدتها، فيقطع ما بينهم وبين خالقهم، فتضعف تلك الأرواح، وتهزل تلك الأفئدة، فلا يبقى إلا ميدان اليأس الفسيح تجول فيه خيول الضعف والهزيمة والتبعية المرذولة.

واليأس داءٌ قاتلٌ وعلّةٌ مستديمة، إن لم تتدارك رحمةُ الله ومغفرته وهداه قلوبَ اليائسين.

وقد حفل القرآن الكريم بمواطن عدّة يتجلّى فيها معنى اليأس وصوره وأسبابه، كما رسم لنا طرق الوقاية والعلاج.

وقد تتبعت تحت إشراف الدكتور الفاضل: محسن الخالدي -حفظه الله تعالى- هذه المعاني في كتاب الله عز وجل، فكان هذا البحث الذي أرجو له القبول من الله، فإن أحسنت فبفضل الله وتوفيقه، وإن أخطأت فمن نفسي التي بين جنبي، سائلة الله المغفرة والهداية.

الدراسات السابقة

بعد البحث والتقصي والتنقيب، تبين لي أن موضوع هذه الرسالة لم يُكتب فيه بشكل مستقل، كرسالة جامعية، أو ككتاب مطبوع، حتى إن موضوع اليأس لم يأخذ مساحة كبيرة في كتب الأخلاق والزهد والحديث، ولكنني وجدت كتاباً ومقالاً يتعلقان بموضوع اليأس (دراسة قرآنية) بشكل مباشر أو غير مباشر على النحو الآتي:

1 - أما الكتاب، فكان بعنوان "الحزن والاكتئاب على ضوء الكتاب والسنة" لمؤلفه: الدكتور عبد الله الخاطر، بين فيه كاتبه معنى الحزن والاكتئاب، وتعرض لأنواع الحزن، وأعراض الاكتئاب وأسبابه، وبين سبل ووسائل العلاج الشرعية والطبية، وكان هناك تشابه بين موضوع هذا الكتاب وموضوع الرسالة من حيث: الأسباب، ووسائل العلاج، إلا أنه يبقى موضوعاً مستقلاً عن موضوع اليأس، بالإضافة إلى أنه قد تم بحثه في ضوء الكتاب والسنة معاً، وبعيداً عن منهجية التفسير الموضوعي، أما موضوع هذه الرسالة فقد كان دراسة قرآنية موضوعية، وكان أصل هذا الكتاب عبارة عن محاضرة لم يُكتب لصاحبها وهو عبد الله الخاطر - أن يقدمها بنفسه للقراء، وإنما راجعها وقدم لها الدكتور: عبد الرزاق بن محمد الحمد، ولم أعثر على معلومات النشر لهذا الكتاب، إلا أن حقوق الطبع والنشر والترجمة محفوظة للمنتدى الإسلامي.

2 - وأما المقال فهو بعنوان: "دلالة اليأس والقنوط في القرآن الكريم" للباحث: عبد الكريم عزيز¹، تحدث فيه عن معنى اليأس والقنوط، وعن الفرق بينهما فيما لا يتجاوز الصفحتين، ومع أن موضوع المقال يرتبط ارتباطاً مباشراً بموضوع الرسالة، إلا أن هذا الارتباط كان

¹ انظر: ملتقى البيان لتفسير القرآن <http://www.bayan-alquran.net/forums/showthread.php?t=3255>

في جانب صغير ومحدود من جوانب هذا الموضوع، ويدخل تحت نطاق الفصل الأول من فصول هذه الرسالة، ولم يتعرّض كاتبه لأنواع اليأس، أو أسبابه، أو سبل علاجه والوقاية منه، فجاءت هذه الدراسة لتستكمل الموضوع من جميع جوانبه.

أهمية الدراسة

تتبع أهمية الدراسة من الأمور الآتية:

- 1 - كونها دراسة قرآنية بحثية، جاءت خدمة لأشرف كتاب على وجه الأرض، وللمصدر الأول من مصادر الدين الإسلامي؛ ألا وهو القرآن الكريم.
- 2 - ارتباطها بالواقع الذي نعيش، حيث سيطر الهمُّ والحزن واليأس على قلوب كثير من الناس؛ نتيجة لكثرة الابتلاءات والمحن والصعوبات.
- 3 - كونها عالجت خلقاً سيئاً، وداءً مزمناً متفشياً بين كثير من الناس؛ من خلال الوقوف على أسباب هذا الداء، والإشارة إلى أنه صفة من صفات الكفار، وخلق ملازم لهم، وبيان عاقبتهم جزائهم، وأخيراً وصف سبل الوقاية والعلاج لمثل هذا الداء.
- 4 - كونها دراسة عرّضت موضوع اليأس وفق منهجية التفسير الموضوعي لأول مرة، وبالتالي فقد أسهمت هذه الدراسة بإضافة ما هو جديد ومهم على ساحة الدراسات القرآنية الموضوعية.

أسباب اختيار الموضوع

إن سبب اختياري لموضوع هذه الدراسة يكمن في الأمور الآتية:

- 1 - حبي للكتابة في الدراسات القرآنية، والخوض في غمار التفاسير وأقوال الأئمة والعلماء، وكان هذا هو الدافع الأبرز لاختياري هذا الموضوع كدراسة قرآنية بشكل عام.

2 - الميل شخصي، والرغبة في التعرف على ما جاء في القرآن الكريم حول موضوع اليأس بشكل خاص، والذي وُلد لدي هذه الرغبة، وشجعتني لاختيار هذا الموضوع بالإضافة إلى ما سبق: عدم وجود دراسة متخصصة تعالج هذا الموضوع بصورة مستقلة، إضافة إلى أن موضوع هذا البحث كان ضمن المواضيع التي تمت دراستها بشكل مختصر في مساق التفسير الموضوعي لدى الدكتور محسن الخالدي -حفظه الله - عام 2010.

أسئلة الدراسة

ستحاول الدراسة الإجابة عن الأسئلة الآتية:

- 1 - ما معنى اليأس لغة واصطلاحاً؟ وما دلالاته في السياق القرآني؟
- 2 - هل هناك أشباه ونظائر لمصطلح اليأس في القرآن الكريم؟
- 3 - ما هي صور اليأس وأنواعه الواردة في القرآن الكريم؟ وهل يُدْمُ اليأس في جميع الأوقات؟
- 4 - ما موقف الأنبياء من اليأس؟
- 5 - ما هي الأسباب التي تؤدي إلى اليأس؟ وما هو جزاء اليائسين؟
- 6 - كيف عالج القرآن الكريم مرض اليأس؟

أهداف الدراسة

تسعى الدراسة إلى تحقيق الأهداف الآتية:

- 1 - الإسهام في بناء مجتمع قوي فعال يحدوه الأمل والرجاء، ويظله الرضا والاستقرار.
- 2 - تبرئة ساحة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من اليأس والقنوط.
- 3 - تنكير الناس بأنه لا يأس مع الإيمان ولا إيمان مع اليأس.

منهجية الدراسة

المنهج المتبع في هذه الدراسة هو: المنهج الاستقرائي التحليلي؛ وذلك من خلال تتبع الآيات القرآنية ذات الصلة بمصطلح اليأس ونظائره في القرآن الكريم وجمعها، ومن ثم دراسة هذه الآيات وتحليلها وفق منهجية التفسير الموضوعي، وذلك عبر الخطوات الآتية:

- 1 - جمع الآيات المتعلقة بموضوع اليأس، وعزوها إلى سورها.
- 2 - استخراج اللطائف واللفظات لورود مادة اليأس في القرآن الكريم.
- 3 - دراسة أقوال المفسرين السابقين منهم والمحدثين في الآيات موضوع الدراسة، ونقل ما يتناسب منها مع الموضوع.
- 4 - اتباع الأسلوب العلمي في توثيق المعلومات، بحيث يتم التوثيق كاملاً عند أول ذكر للمرجع، ثم بعد ذلك الاكتفاء بذكر شهرة المؤلف واسم الكتاب والجزء والصفحة.
- 5 - الترجمة للأعلام المغمورين الوارد ذكرهم في الرسالة، والاكتفاء بالتعريف بهم في أول ذكر لهم، لذلك من أراد أن يقف على ترجمة علم ما سبقت ترجمته فله أن يرجع إلى فهرس الأعلام في آخر الرسالة.
- 6 - تدعيم الرسالة بذكر بعض الشواهد من الأحاديث الصحيحة، والأشعار والأقوال المأثورة.
- 7 - نسبة الأحاديث إلى مصادرها، وإذا كان في الصحيحين فيكتفى بنسبته إليهما، أما إذا كان من مصادر أخرى فإنه يتم ذكر حكم أحد علماء الحديث عليه.
- 8 - كتابة أبرز النتائج التي تم التوصل إليها في نهاية البحث.

حدود الدراسة

هذه الدراسة محدودة بدراسة اليأس ونظائره التي ترتبط به في المعنى نفسه وهي: (القنوط والإبلاس والخيبة والسأم والهلع)، بالإضافة إلى الآيات التي تحمل معنى اليأس وإن لم يذكر فيها اليأس بصورة مباشرة.

الفصل الأول

تعريف اليأس

وبيان دلالاته في السياق القرآني

المبحث الأول: تعريف اليأس

المبحث الثاني: اليأس في السياق القرآني

المبحث الثالث: نظائر اليأس في القرآن الكريم

المبحث الأول

تعريف اليأس

المطلب الأول: اليأس في اللغة

اليأس في لغة العرب فيه لغتان: الأولى من يئس يئس ويئس، مثل حسب يحسب ويحسب، وهذا ورد عن الأصمعي^{1،2}، ويقال إنه ليست ياء في صدر كلمة بعدها همزة إلا هذه³، والثانية: من أيس يئس، وأيسته أي: أياسته وهو اليأس والإياس، وكان في الأصل الإيباس بوزن الإيعاس^{4،5}، وقد ذكر ابن سيده رأياً آخر في هذه المسألة، وهو أن: (أيس) مقلوب من (يئس)، وليس بلغة فيه؛ بدليل أنه لو لم يكن مقلوباً لأعلوه، فقالوا: إيست أس، كهبت، أو أهاب؛ فظهوره صحيحاً يدل على أنه إنما صح؛ لأنه مقلوب عما تصح عينه، وهو (يئس)⁶ بالإضافة إلى أنه لا مصدر لقولنا (أيس)، فأما (الإياس) فمصدر (إست)، ولما لم يكن له مصدر، علم أنه لا أصل له، وإنما المصدر: (اليأس)، وهذا من (يئست)⁷.

وإذا كان (اليأس) مأخوذاً من (يئس)؛ فإنه يحتمل المعاني الآتية:

¹ هو أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن علي بن أصمغ، المعروف بالأصمعي الباهلي، (ت:216هـ)، كان صاحب لغة ونحو، وإماماً في الأخبار والملح والنوادر والغرائب، له تصانيف كثيرة منها: كتاب خلق الإنسان، وكتاب الأجناس، وكتاب الأنواء، وكتاب الهمز، وغيرها كثير، [انظر: ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد، (ت:681هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة - لبنان، (بدون ذكر الطبعة ولا سنة النشر)، (170/3-176)].

² انظر: الأزهرى، أبو منصور، محمد بن أحمد (ت:370هـ)، تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي - بيروت، (ط1/2001م) (97/13).

³ ابن فارس، أبو الحسن، أحمد بن فارس بن زكريا (ت:395هـ)، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر - بيروت، طبعة سنة (1399هـ/1979م) (153/6).

⁴ الإيعاس: هو ضرب من سير الإبل في خطى مسرعة وواسعة، مع مد أعناقها، [انظر: ابن منظور، أبا الفضل، محمد بن مكرم الإفريقي المصري (ت:750هـ)، لسان العرب، دار صادر - بيروت، (ط1/1410هـ)، (256/6)].

⁵ انظر: الأزهرى، تهذيب اللغة (97/13).

⁶ انظر: ابن سيده، أبا الحسن، علي بن إسماعيل المرسي (ت:458هـ)، المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق: عبد الحميد هندوي، دار الكتب العلمية - بيروت، (ط1/2000م)، (631/8).

⁷ انظر: ابن جني، أبا الفتح، عثمان، (ت:392هـ)، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، علم الكتب - بيروت، (بدون ذكر الطبعة ولا سنة النشر)، (440/2).

1 - القنوط وقطع الأمل عن الشيء، وهو ضد الرجاء¹.

2 - العِلْم، على لغة النخع²،³ قال سحيم بن وثيل اليربوعي⁴:

أقول لهم بالشَّعْبِ إذ يبسونني⁵ ألم تياسوا أني ابن فارس زَهْدَم⁶ [بحر الطويل]

3 - السل؛ وذلك لأن صاحبه ميثوس من شفائه⁷، "ويقال: إنما سمي السل داء يأس، أو داء اليأس؛ لأن إلياس بن مضر⁸ مات منه"⁹.

قال عروة بن حزام¹⁰:

¹ انظر: الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني (ت 1301هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس، دار الهداية (بدون ذكر الطبعة ولا سنة النشر) (49/17).

² هي: قبيلة كبيرة من مذحج، واسم النخع: جسر بن عمرو بن علة بن جلد بن مالك، وقيل له النخع؛ لأنه انتزع من قومه: أي بعد عنهم، نزل بيشة ونزلوا الكوفة، ينسب إليهم من العلماء الجم الغفير: منهم علقمة بن قيس بن يزيد النخعي صاحب ابن مسعود، وإبراهيم بن يزيد النخعي الفقيه المشهور، [انظر: ابن الأثير، أبا الحسن علي بن أبي الكرم الجزري (ت: 630هـ)، اللباب في تهذيب الأنساب، دار صادر - بيروت، (طبعة سنة 1400هـ/1980م) (304/3)].

³ انظر: الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر (ت 721هـ)، مختار الصحاح، تحقيق: محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون - بيروت، طبعة سنة (1415هـ / 1995م) (309/1).

⁴ هو: سحيم بن وثيل الرياحي اليربوعي الحنظلي التميمي: شاعر مخضرم، عاش أربعين سنة في الجاهلية وستين سنة في الإسلام، له مفاخرة مع غالب بن صعصعة والد الفرزدق، وهو القائل: أنا ابن جلا وطلاع الثيايا متى أضع العمامة تعرفوني، [انظر: ابن حجر، أبا الفضل أحمد بن علي العسقلاني (ت: 852هـ)، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل - بيروت، (ط1412/1هـ - 1992م) (252/3)].

⁵ وفي رواية: يأسرونني، من الأسر، وإنما قال: يبسونني؛ لأنه كان وقع عليه سباء فضربوا عليه بالميسر يتحاسبون على قسمة فدائه، [انظر: ابن منظور، لسان العرب، (260/6)].

⁶ انظر: الزبيدي، تاج العروس (50/17)، وزهدم: اسم فرس، [انظر: ابن سيده، المحكم، (632/8)].
⁷ انظر: ابن سيده، المحكم (632/8).

⁸ هو: إلياس بن مضر بن نزار، أبو عمرو، جاهلي، من سلسلة النسب النبوي، أمه: الرباب بنت حميرة بن معد بن عدنان، سماه أبوه: إلياس؛ ليكون موافقاً لاسم النبي إلياس عليه السلام، وإلياس أول من أهدى البدن إلى البيت الحرام، وأبوه أول من سن للعرب حداء الإبل، [انظر: السهيلي، عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد (ت: 581هـ)، الروض الأثف، تحقيق: عبد الرحمن الوكيل، دار النصر - القاهرة، (ط1387/1هـ-1967م) (61/1-62). الزركلي، خير الدين بن محمود بن علي الدمشقي (ت: 1396هـ)، الأعلام، دار العلم للملايين - بيروت، (ط5/1980) (10/2)].

⁹ الزبيدي، تاج العروس (51/17).

¹⁰ عروة بن حزام العذري، أحد متبني العرب وممن قتله الغرام، مات عشقاً في حدود الثلاثين للهجرة في خلافة عثمان رضي الله عنه، وهو صاحب عفراء التي كان يهواها، ولكنه لم يحظ بالزواج بها لغلاء مهرها، فمات من شدة حبه لها، وله ديوان شعر صغير، [انظر: الكتبي، محمد بن شاكر بن أحمد (ت: 764هـ)، فوات الوفيات، تحقيق: علي محمد بن يعوض الله وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية - بيروت، (ط1/2000م) (60/2)].

بَيَ الْيَأْسُ أَوْ دَاءُ الْهَيْامِ شَرِبْتُهُ فَيَاكَ عَنِي لَا يَكُنْ بِكَ مَا بِيَا¹ [بحر الطويل]

أما إذا كان (اليأس) مأخوذاً من (أيس)؛ فإنه يحتمل المعاني الآتية:

1 - الوجد، قال الليث²: "لا أيس، أي: لا وجد، يقال: التأييس: الاستقلال، ما أيسنا فلاناً خيراً أي: ما استقلنا منه خيراً، أي: أردته لأستخرج منه شيئاً فما قدرت عليه"³.

2 - القهر⁴.

وذكر الأزهري أن من معاني التأيس بالإضافة إلى ما ذكر: التأثير في الشيء، والتلين، من أيست الشيء: ليئته⁵.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن كلتا اللغتين (بئس و أيس)، وردتا في القرآن الكريم؛ ففي قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْعَسَ الرُّسُلُ ﴾⁶، وقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْعَسُوا مِنْهُ ﴾⁷، قراءتان متواترتان؛ قراءة جمهور القراء: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْعَسَ الرُّسُلُ ﴾ و ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْعَسُوا مِنْهُ ﴾ بالهمز، على لغة من يقول: بيست؛ فالياء فاء الفعل، والهمز عينه، وقراءة ابن كثير في رواية البرزي: (حتى إذا استاييس)، و (فلما استاييسوا منه) بغير همز، مع تقديم الألف،

¹ انظر: ابن حزام، عروة، ديوان عروة بن حزام، تحقيق: القوال، أنطوان محسن، دار الجيل - بيروت، (ط1/1416هـ-1995م) (ص:53).

² هو الليث بن المظفر، هكذا قال الأزهري في مقدمة كتابه، وقال ابن المعتز في كتاب الشعراء من تصنيفه: الليث بن رافع بن نصر بن سيار، كان من أكتب الناس في زمانه، بارع الأدب بصيراً بالشعر والغريب والنحو، وكان كاتباً للبرامكة وكانوا معجبين به، فارتحل إليه الخليل وعاشه فوجده بحراً فأغناه، وذكر الأزهري أنه من المتقدمين، ونحل الخليل بن أحمد تأليف كتاب العين جملة؛ لينفق كتابه باسمه ويرغب فيه من حوله، [انظر: الحموي، أبا عبد الله، ياقوت بن عبد الله، (ت:626هـ)، معجم الأدباء، دار الكتب العلمية - بيروت، (ط1/1411هـ-1991م)، (30/5-31)].

³ الأزهري، تهذيب اللغة (13/97-98).

⁴ انظر: الفيروزآبادي، مجد الدين بن يعقوب (817هـ)، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة - بيروت (بدون ذكر الطبعة ولا سنة النشر) (ص:684).

⁵ انظر: الأزهري، تهذيب اللغة، (13/98).

⁶ يوسف، آية 110.

⁷ سورة يوسف، آية 80.

على لغة من يقول: (أَيْسْتُ)، نُقِلَتْ العَيْنُ إلى موضع الفاء، فصار استعفل: استأيس، ثم خَفَّتْ
الهمزة فصارت ألفاً؛ لسكونها، وانفتاح ما قبلها، فصارت: استأيس، وهو من الإياس.

والأصل: الهمز؛ لأنه من اليأس¹. ويمكن القول بأن القرآن الكريم نزل بلغة من قرأ:
(بَيْس)²، وجميع المواضع التي وردت فيها مادة (اليأس) في القرآن الكريم، يمكن رَدُّها إلى اللغة
الأولى، وهي من: (بَيْس)، مع التفصيل السابق في قوله تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ
الرُّسُلُ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ ﴾.

المطلب الثاني: اليأس في الاصطلاح

عرّف الرَّاعِبُ الأصفهاني اليأس بأنه: "انتفاء الطمع"³، وعرّفه ابن الجوزي بأنه: "القطع
على أن المطلوب لا يتحصّل لتحقّق فواته"⁴، ويمكن الجمع بين التعريفين بلغة سهلة بسيطة؛
فيقال: اليأس هو: انتفاء الطمع في أمر ما لتحقق فواته، والقطع بأنه غير ممكن الحصول، وهذا
ما أشار إليه ابن رجب الحنبلي بقوله: "إن الإنسان إذا أيس من شيء استغنى عنه، وقلّ طمعه
فيه"⁵.

¹ انظر: ابن زنجلة، أبا زرعة عبد الرحمن بن محمد، (ت: نحو: 403)، حجة القراءات، تحقيق: سعيد الأفغاني، مؤسسة
الرسالة - بيروت، (ط1418/5هـ)، (ص: 366).

² انظر: الأزهرى، تهذيب اللغة، (97/13).

³ الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد (ت: 502هـ)، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار
المعرفة - لبنان، (بدون ذكر الطبعة ولا سنة النشر) (ص: 552).

⁴ ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن (ت: 597هـ)، نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، تحقيق: محمد عبد
الكريم كاظم الراضي، مؤسسة الرسالة - بيروت، (ط1404/1هـ / 1984م) (ص: 633).

⁵ ابن رجب، أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد الحنبلي (ت: 795هـ)، جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من
جوامع الكلم، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باحس، مؤسسة الرسالة - بيروت، (ط7 / 1417هـ / 1997م)،
(ص: 300).

المطلب الثالث: اليأس عند علماء النفس

"يعرّف آرون بيك¹ اليأس بأنه: حالة وجدانية تبعث على الكآبة، وتتم بتوقع الفرد السلبية نحو الحياة والمستقبل، وخيبة الأمل أو التعاسة، وتعميم ذلك الفشل في كل محاولة"².

ويتضمن اليأس ثلاثة أبعاد³:

البعد الأول: الاتجاه السلبي نحو الذات، ويعرف بأنه: تكوين الفرد لاتجاهات سلبية نحو ذاته فيصفاها بالعجز والنقص والكسل والتحقير والكرهية.

البعد الثاني: الاتجاه السالب نحو الحاضر، ويعرف بأنه: إحساس الفرد باتجاهات سلبية نحو حاضره متمثلة في سوء الحظ، والعجز عن تحويل الأمور لصالحه، والفشل المستمر، وعدم القدرة على تحقيق الأهداف التي يسعى إلى تحقيقها.

البعد الثالث: الاتجاه السالب نحو المستقبل، ويعرف بأنه: اتخاذ الفرد اتجاهات تنصف بالخوف من المستقبل، والتشاؤم من سوء الأحوال، أو عدم السعادة في مستقبل حياته.

ويربط علماء النفس بين مفهوم اليأس ومفهوم القنوط مُعرِّفين الأخير بأنه: حالة انفعالية غير سارة، أو شديدة الإيلام تقترن بالتخلي عن أمل نجاح الفرد في بلوغ غاية أو رغبة⁴.

"وخلاصة القول: إن اليأس مرض نفسي يدفع صاحبه لضيق الصدر بالحياة، واشتهاء الموت، وتصور كل ما حوله بمنظار أسود قائم يُبدّلُ المشاهد، وهذا الداء النفسي يحرم المريض هدوء باله، ورغد عيشه، ويَطُوخُ به إحساس ينتابه فيحرقه وميض نفسه، وينغص عيشه، ولا يفارقه هذا الإحساس، ويجسم لديه شعوراً يبعث به على الخوف فتتألم نفسه ويجفوه النوم"⁵.

¹ باحث وعالم أمريكي، ورئيس لمعهد بيك للعلاج المعرفي والبحوث، وأستاذ الطب النفسي في جامعة بنسلفانيا، أسس العلاج المعرفي في أوائل الستينيات من القرن الماضي، وصمم ونفذ عدداً من التجارب لاختبار مفاهيم التحليل النفسي للاكتئاب، [انظر: www.cbtarabia.com].

² معمرية، بشير، بحوث ودراسات في علم النفس، المكتبة العصرية – المنصورة، (ط1/2009م) (62/3 – 63).

³ انظر: المرجع السابق (63/3).

⁴ انظر: معمرية، بحوث ودراسات في علم النفس، (63/3).

⁵ مقال على النت للدكتور فهد ناصر المطوع، بعنوان (اليأس)، انظر: <http://www.emanway.com/content/6677>

المبحث الثاني

اليأس في السياق القرآني

المطلب الأول: عرض مادة (يَئِسَ) في القرآن الكريم

فيما يلي عرض لمادة (يَئِسَ) على اختلاف صيغها ومشتقاتها في القرآن الكريم، وسيتم عرض الآيات التي تضمنت هذه المادة وفقاً لتكرار ورودها في القرآن الكريم من الكثير إلى القليل، مع ترتيب آيات كل مفردة حسب ترتيب التلاوة بالإضافة إلى بيان رقم الآية واسم السورة ومكية أو مدنية وذلك على النحو الآتي¹:

المفردة وعدد مرات ورودها	الرقم	الشاهد	السورة	رقم الآية	بيان المكي والمدني من السور
يئس (مرتان)	1	الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ	المائدة	3	مدنية
	2	كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ	المتحنة	13	مدنية
يئس (مرتان)	3	إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ	يوسف	87	مكية
	4	أَفَلَمْ يَأْتِسِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا	الرعد	31	مدنية وقيل مكية
يئسوا (مرتان)	5	أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي	العنكبوت	23	مكية
	6	قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ	المتحنة	13	مدنية
ليؤوس (مرة واحدة)	7	وَلَيْنَ أَدَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيُؤَسُّ كَفُورٌ	هود	9	مكية

¹ انظر مادة (يئس) عند عبد الباقي، محمد فؤاد (ت: 1388هـ)، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الفكر - بيروت (طبعة سنة 1407 هـ / 1987م) (ص: 769).

مكية	80	يوسف	فَلَمَّا اسْتَيْسُوا مِنْهُ حَلْصُوا وَخَجَا	8	استيأسوا (مرة واحدة)
مكية	110	يوسف	حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا	9	استيأس (مرة واحدة)
مكية	87	يوسف	وَلَا تَأْيِسُوا مِنْ رَّوْحِ اللَّهِ	10	تأيأسوا (مرة واحدة)
مكية	49	فصلت	لَا يَسْعَمُ إِلَّا نَسْنُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَعُوسُ فَنُوحُ	11	فيؤوس (مرة واحدة)
مدنية	4	الطلاق	وَأَلَّتْ يَيْسَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ	12	يئس (مرة واحدة)
مكية	83	الإسراء	وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَ بَجَانِيهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا	13	يؤوساً (مرة واحدة)

المطلب الثاني: الملحوظات العامة لورود مادة (يئس) في القرآن الكريم

- 1 - عدد السور التي وردت فيها مادة (يئس) على اختلاف صيغها ومشتقاتها تسع سور .
- 2 - عدد مرات ورود مادة (اليأس) في القرآن الكريم ثلاث عشرة مرة، وذلك في إحدى عشرة آية من آيات القرآن الكريم.
- 3 - أكثر السور التي وردت فيها مادة (اليأس) هي سور مكية؛ حيث وردت مشتقات هذا المصطلح في خمس سور مكية، وثلاث سور مدنية، وسورة مختلف فيها، هل هي مكية أم مدنية، وهي سورة الرعد¹، وبغض النظر عن كونها مكية أم مدنية؛ فإن اليأس جاء فيها بمعنى: العلم، لا القنوط الذي هو مدار البحث، كما تجدر الإشارة هنا إلى أن سورة الممتحنة

¹ انظر: السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، (ت:911هـ)، الإتيان في علوم القرآن، تحقيق: سعيد المنذوب، دار الفكر - لبنان، (ط1/1416هـ/1996م)، (42/1).

المدنية، جاء الخطاب فيها موجهاً لأهل مكة وحكمها مكى، على الرغم من كونها نزلت في المدينة¹.

المطلب الثالث: معاني مادة (يَس) في القرآن الكريم

"ورد اليأس في القرآن الكريم بمعنيين اثنين:

أحدهما: القنوط، ومنه قوله تعالى في سورة يوسف: ﴿وَلَا تَأْيَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْيَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾²، أي: لا تقنطوا من أن يروح الله عنا ما نحن فيه من الحزن على يوسف وأخيه بفرج من عنده، إنه لا يقنط من فرجه ورحمته، ويقطع رجاءه منه إلا القوم الذين يجحدون قدرته على ما شاء تكوينه³.

والثاني: العلم، ومنه قوله تعالى في سور الرعد: ﴿أَفَلَمْ يَأْيَسِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾⁴، أي: أفلم يعلم ويتبين الذين آمنوا بالله ورسوله أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً إلى الإيمان به من غير إيجاد آية، ولا إحداث شيء مما سألوا إحداثه⁵، وفُسِّر اليأس بالعلم في هذه الآية؛ "لأن الله تعالى قد أوقع إلى المؤمنين أن لو شاء لهدى الناس جميعاً فقال: أفلم ييأسوا علماً، يقول: يُؤَيِّسُهُم العلم، فكان فيهم العلم مضمرًا، كما تقول في الكلام: قد يئست منك ألا تفلح، كأنك قلت: علمته علماً⁶، فالعلم بالشيء يوجب اليأس من خلافه⁷، وكذلك

¹ انظر: الزركشي، أبا عبد الله، محمد بن بهادر بن عبد الله (ت: 794هـ)، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة - بيروت، طبعة سنة (1391هـ) (195/1).

² سورة يوسف، آية 87 .

³ انظر: الطبري، أبا جعفر، محمد بن جرير (ت: 310هـ)، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار الفكر - بيروت، طبعة سنة (1405هـ) (49- 48/13).

⁴ سورة الرعد، آية 31 .

⁵ انظر: الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (155/13) بتصرف.

⁶ الفراء، أبو زكريا، يحيى بن زياد (ت: 207هـ)، معاني القرآن، عالم الكتب - بيروت، (ط/3-1403هـ - 1983م)، (63/2).

⁷ انظر: البقاعي، أبا الحسن، برهان الدين إبراهيم بن عمر (ت: 885هـ)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية - بيروت، طبعة سنة (1415هـ/1995م) (153/4).

فإن "اليأس من الشيء عالم بأنه لا يكون، نظيره استعمال الرجاء في معنى الخوف، والنسيان في الترك؛ لتضمنهما إياهما"¹، فعلاقة اليأس بالعلم علاقة مجازية².

المطلب الرابع: اللطائف واللفات لورود مادة (يئس) في القرآن الكريم

لقد قامت الباحثة بتقسيم هذه المادة إلى قسمين اثنتين على النحو الآتي:

أولاً: فعل ماضٍ: يئس: فعل ماضٍ متصل بنون النسوة، ورد مرة واحدة.

يئسوا: فعل ماضٍ متصل بواو الجماعة، ورد مرتين.

استيأس: فعل ماضٍ مزيد، ورد مرة واحدة.

استيأسوا: فعل ماضٍ مزيد متصل بواو الجماعة، ورد مرة واحدة.

يئس: فعل ماضٍ ثلاثي مجرد، ورد مرتين.

اللفات والسمات البارزة لورود هذا التصريف في آيات القرآن الكريم

من دلالة صيغة الفعل الماضي (يئسوا) التحقق والمبالغة، ويتجلى ذلك في قوله تعالى:

﴿أُولَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي﴾³، هذا إذا كان معنى الآية: أن الكفار سييأسون من رحمة الله

تعالى يوم القيامة، وهو المعنى الأول للآية⁴، أما إذا كان معناها: أن الكفار يئسوا من رحمة الله

¹ الشوكاني، محمد بن علي بن محمد (ت:1250هـ)، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، دار الفكر - بيروت (بدون ذكر الطبعة ولا سنة النشر) (84/3).

² انظر: أبا عبيدة، معمر بن المثنى، (ت:210هـ)، مجاز القرآن، مكتبة الخانجي - القاهرة (بدون ذكر الطبعة ولا سنة النشر) (332/1).

³ سورة العنكبوت، آية 23 .

⁴ انظر: البيضاوي، عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي (ت:685هـ)، تفسير البيضاوي الموسوم بـ(أنوار التنزيل وأسرار التأويل)، دار الفكر - بيروت (بدون طبعة ولا سنة نشر) (313/4). أبا السعود، محمد بن محمد العمادي، (ت:982هـ)، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي - بيروت، (بدون ذكر الطبعة ولا سنة النشر)، (36/7)، الألوسي، أبا الفضل محمود، (ت: 1270هـ)، روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي - بيروت، (بدون ذكر الطبعة ولا سنة النشر)، (149/20).

في الحياة الدنيا، وهو المعنى الثاني لها، فإن هذه الدلالة لا تنطبق على هذا المعنى؛ وذلك لأن يأسهم حاصل ومتحقق لا محالة؛ لأنهم لم يرجوا لقاء الله يوماً، ولا قال أحد منهم: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين¹.

ثانياً: صيغة مبالغة: فيؤوس، يؤوسا، ليؤوس، كلها على وزن (فعول)، وقد ورد كل منها مرة واحدة في القرآن الكريم.

1 - صيغة المبالغة هنا تدل على شدة اليأس والقنوط²، فـ(يؤوس) تدل على العرابة في اليأس، وانقطاع الرجاء والأمل، والحزن العظيم، والقطع بلزوم تلك الحالة³.

2 - إن الموصوفين بالدرجة الأولى بشدة اليأس هم: الكفار والمنافقون؛ وذلك لأن لفظ (الإنسان) يفيد الاستغراق، وهو استغراق عرفي، أي أكثر أفراد الإنسان، وأكثر الناس يومئذ كفاراً، وأكثر العرب مشركون⁴.

3 - إن اليأس والقنوط من الأمور التي طُبِعَ عليها الجنس البشري، فمن أراد الله به منهم خيراً عصمه، ومن أراد به شراً أجراه مع الطبع فكان كافراً⁵.

¹ انظر: البقاعي، نظم الدرر، (549/5).

² انظر: النسفي، أبا البركات، عبد الله بن أحمد بن محمود، (ت: 710هـ)، تفسير القرآن الجليل المسمى بـ(مدارك التنزيل وحقائق التأويل)، تحقيق: مروان محمد الشعار، دار النفائس - بيروت، طبعة سنة (2005م)، (79/4).

³ انظر: البقاعي، نظم الدرر، (587/6).

⁴ انظر: ابن عاشور، محمد الطاهر، (ت: 1393هـ)، التحرير والتنوير، دار سحنون - تونس، (طبعة سنة 1997م)، (191/15).

⁵ انظر: البقاعي، نظم الدرر (587/6).

المبحث الثالث

نظائر اليأس في القرآن الكريم

هناك ألفاظ في القرآن الكريم لها بعض المعاني والدلالات المشتركة والمتقاربة، ويظن الناظر فيها لأول وهلة أنها مترادفة، ولكن القرآن الكريم منزّه عن مثل هذا الترادف؛ "فما من كلمة في البيان العليّ المعجز يمكن أن تقوم مقامها كلمة أخرى، وإن شاكهتها¹ والتقت معها في أصل معناها، فلكل كلمة من تنعيمها ومضمونها وشكلها من السمات الخاصة التي لن تكون مجتمعة في غيرها البتة"²، ومن الألفاظ التي وردت في القرآن الكريم وتحمل معنى اليأس: القنوط، والإبلاس، والخيبة، والسأم، والهلع.

المطلب الأول: القنوط

وردت مادة (القنوط) في القرآن الكريم ست مرات، وذلك في خمس سور من سور القرآن الكريم³، كلها مكية، ومن الآيات التي ورد فيها القنوط قوله تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾⁴.

وقد فسّر القنوط هنا باليأس، قال الألوسي في معرض تفسيره لهذه الآية: "أيها المؤمنون المذنبون لا تيأسوا من مغفرته سبحانه وتفضله عز وجل"⁵.

¹ شاكهتها تعني: شابهتها، [انظر: ابن سيده، المحكم، (132/4)].

² توفيق، محمود، شذرات الذهب دراسة في البلاغة القرآنية، (ط1422/1هـ) (ص:33).

³ وردت مادة (القنوط) في القرآن الكريم، على النحو الآتي: (قنطوا) مرة واحدة في سورة (الشورى:28)، و(تقنطوا) مرة واحدة في سورة (الزمر: 53)، و(يقنط) مرة واحدة في سورة (الحجر:56)، و(يقنطون) مرة واحدة في سورة (الروم:36)، و(القنطين) مرة واحدة في سورة (الحجر:55)، و(قنوط) مرة واحدة في سورة (فصلت:49)، [انظر: مادة (قنط) عند عبد الباقي، المعجم المفهرس، (ص:553)].

⁴ سورة الزمر، آية 53 .

⁵ الألوسي، روح المعاني، (13/24).

أما القنوط في اللغة: فقد التقت المعاجم اللغوية على أنه يأتي بمعنى: اليأس¹، وقد "قَنَطَ يَقْنُطُ قَنَاطًا مثل تَعَبٍ يَتَعَبُ تَعَابًا وَقَنَاطَةٌ فهو قَنِطٌ،...وأما قَنَطٌ يَقْنُطُ بالفتح فيهما، وَقَنِطٌ يَقْنِطُ بالكسر فيهما فإنما هو على الجمع بين اللغتين"².

ولكن تمَّ فرق بين اليأس والقنوط، وبالأخص إذا اجتمعا في جملة واحدة، وهو: أن القنوط أشد مبالغة من اليأس³؛ "فاليأس: عدم تأمل وقوع شيء من أنواع الرحمة، والقنوط: هو ذلك مع انضمام حالة هي أشد منه في التصميم على عدم الوقوع"⁴، بالإضافة إلى أن القنوط يتجاوز إحساس اليأس إلى ظاهر البدن بالتضاؤل والانكسار⁵. وذهب ابن الجوزي إلى أن القنوط ثمرة اليأس⁶، وترى الباحثة أنه لا يوجد تعارض بين ما ذهب إليه ابن الجوزي وبين ما سبقه من الأقوال؛ فكأن القنوط ثمرة اليأس لا ينافي كونه أشد مبالغة منه؛ فثمرة الشيء تكون بالعادة أشد قوة وتركيزاً وفعاليةً من الأصل؛ ولذلك فلا عَجَبَ أن يكون القنوط الذي هو ثمرة اليأس، أشد مبالغةً، وأشد تأثيراً على النفس من مجرد الإحساس باليأس.

ومن الجدير ذكره هنا: أن القنوط يكاد يكون الأقرب إلى معنى اليأس من بقية الألفاظ في القرآن الكريم نحو: الخيبة، والإيلاس، والسأم، وغيرها؛ حتى إننا نلاحظ تشابه الآيات التي فيها حديث عن اليأس مع الآيات التي فيها حديث عن القنوط، وما يترتب على ذلك من تشابه في الحكم والعلاج، فقد قال تعالى في سورة الزمر: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۗ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾⁷، وقال

¹ انظر: الفراهيدي، أبا عبد الرحمن، الخليل بن أحمد (ت:175هـ)، كتاب العين، تحقيق: د مهدي المخزومي، و د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، (بدون ذكر الطبعة ولا سنة النشر) (105/5). الرازي، مختار الصحاح (ص:230)، ابن منظور، لسان العرب (386/7)، الزبيدي، تاج العروس (57/20).

² ابن منظور، لسان العرب (386/7) بتصرف.

³ انظر: أبا هلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل (ت:395هـ)، الفروق اللغوية، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة - القاهرة، (بدون ذكر الطبعة ولا سنة النشر) (ص:245).

⁴ الألويسي، روح المعاني (45/13).

⁵ انظر: النسفي، مدارك التنزيل (94/4).

⁶ انظر: ابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر، (ص:633).

⁷ سورة الزمر، آية 53 .

تعالى في سورة يوسف على لسان سيدنا يعقوب عليه السلام: ﴿وَلَا تَأْيِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾¹ فالله سبحانه وتعالى يُحذِرُ في الآيتين من أمر واحد؛ وهو: اليأس والقنوط من رحمة الله ومغفرته، وقال تعالى في موضع آخر على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾²، وفي آية أخرى قال عزَّ من قائل على لسان سيدنا يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّهُ لَا يَأْيِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾³، ففي الآيتين تشابه في الحكم على كل من اليأس والقنوط؛ فهما إما كافر أو ضال، وقد نلاحظ هذا التشابه أيضاً في قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِنِعْمَتِنَا وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾⁵؛ فقد ورد في الآيتين المذكورتين وصف للإنسان في حالة الضراء باليأس والقنوط، وقد عبّر القرآن الكريم عن الضراء في الآية الأولى بعبارة: "وإذا مسه الشر"، وفي الآية الثانية عبّر عنه بعبارة: "وإن تصيبهم سيئة"، والعبارتان تؤيدان المعنى نفسه، بالإضافة إلى أنه قد اجتمع للإنسان وصف باليأس والقنوط في آية واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿لَا يَسْعَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَعُوسُ قَنُوطٌ﴾⁶، وهي تحمل أيضاً معنى الآيتين السابقتين.

¹ سورة يوسف، آية 87.

² سورة الحجر، آية 56.

³ سورة يوسف، آية 87.

⁴ سورة الإسراء، آية 83.

⁵ سورة الروم، آية 36.

⁶ سورة فصلت، آية 49.

المطلب الثاني: الإبلّاس

ورد ذكر (الإبلّاس) في القرآن الكريم ست عشرة مرة، وذلك في ثلاث عشرة سورة¹، كلها مكية باستثناء سورة البقرة. منها قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾²، ومبلسون تعني: "آيسون من الخير، نادمون حزناً"³، و"إبليس" مشتق من الإبلّاس، قال الأزهري في تهذيب اللغة: "وقيل: إن إبليس سُمِّيَ بهذا الاسم؛ لأنه لما أُويسَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ أَبْلَسَ إِبْلَاسًا"⁴.

وأما الإبلّاس في اللغة؛ فهو يأتي بمعنى اليأس، والقنوط، وقطع الرجاء، وبمعنى الانكسار والحزن، يقال: أبلس فلان: إذا سكت غمًا وحزناً⁵.

وعرّفه الراغب الأصفهاني قائلاً: "الإبلّاس: الحزن المعترض من شدة البأس....، ولما كان المبلّس كثيراً ما يلزم السكوت وينسى ما يعنيه قيل: أبلس فلان: إذا سكت وانقطعت حجته"⁶، وعند الذهبي: "اليأس من النجاة عند ورود الهلكة"⁷.

من هنا تظهر علاقة الإبلّاس باليأس؛ فالحزن والغم والانكسار والسكوت والوجوم كلها صفات يجمعها كل من اليأس والمبلس بين جنبيه.

¹ وردت مادة (الإبلّاس) في القرآن الكريم على النحو الآتي: (مبلسون) (3) مرات في السور الآتية (الأنعام: 44)، (المؤمنون: 77)، (الزخرف: 75)، وورد لفظ (لمبلسين) مرة واحدة في سورة (الروم: 49)، وورد لفظ (يبلس) مرة واحدة في سورة (الروم: 12)، وورد لفظ (إبليس) (11) مرة في السور الآتية: (البقرة: 34)، (الأعراف: 11)، (الحجر: 31، 32)، (الإسراء: 61)، (الكهف: 50)، (طه: 116)، (الشعراء: 95)، (سبأ: 20)، (ص: 74، 75)، [انظر: مادة (بلس) عند عبد الباقي، المعجم المفهرس (ص: 134)].

² سورة الأنعام، آية 44 .

³ الطبري، جامع البيان (227/1).

⁴ الأزهري، تهذيب اللغة (306/12).

⁵ انظر: الرازي، مختار الصحاح (ص: 26). ابن منظور، لسان العرب (30/6)، الزبيدي، تاج العروس (464/15).

⁶ الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن (ص: 60) بتصرف.

⁷ الذهبي، أبو عبد الله محمد شمس الدين، (ت: 748هـ)، الكبار، مطبعة الأنوار المحمدية - القاهرة، (بدون ذكر الطبعة ولا سنة النشر) (ص: 250).

المطلب الثالث: الخيبة

وردت مادة (الخيبة) في القرآن الكريم خمس مرات، وذلك في أربع سور من سور القرآن الكريم¹، كلها مكية باستثناء سورة آل عمران. قال تعالى: ﴿وَعَنْتَ أَلْوَجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾²، ومعنى (خاب) هنا: "يئس من رحمة الله"³، وفسّر أبو سليمان الدمشقي⁴ قوله تعالى: ﴿وَحَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾⁵ بأنه يئس من الإجابة⁶، وأما معنى خائبين في قوله تعالى: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَسِبُ حَآيِبِينَ﴾⁷، أي: "منقطعي الآمال"⁸.

وجاءت الخيبة في السنة النبوية بمعنى الحرمان، فعن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: "كان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم إذا كان الرجل صائماً فحضر الإفطار فنام قبل أن يفطر لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يمسي، وإن قيس بن صرمة الأنصاري⁹ كان صائماً، فلما

¹ وردت مادة (الخيبة) في القرآن الكريم على النحو الآتي: (خاب) (4) مرات في السور الآتية: (إبراهيم: 15)، (طه: 111، 61)، (الشمس: 10)، وورد لفظ (خائبين) مرة واحدة في سورة (آل عمران: 127)، [انظر: مادة (خاب) عند عبد الباقي، المعجم المفهرس (ص: 249)].

² سورة طه، آية 111.

³ النسفي، مدارك التنزيل، (68/3).

⁴ هو أبو سليمان السعدي المفسر، صنف كتباً في التفسير، منها كتاب مجتبي التفسير، وكان شافعيّاً أشعريّاً، كثير الاتباع للسنة، حسن التكلم في التفسير، عاش في القرن الرابع، [انظر: الأندروي، أحمد بن محمد، طبقات المفسرين، تحقيق: سليمان بن صالح الخزي، مكتبة العلوم والحكم - السعودية، (ط1417/1هـ/1997م) (ص: 95-96)].

⁵ سورة إبراهيم، آية 15.

⁶ انظر: ابن الجوزي، أبا الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت: 597هـ)، زاد المسير في علم التفسير، المكتب الإسلامي - بيروت (ط1404/3هـ) (351/4).

⁷ سورة آل عمران، آية 127.

⁸ الألوسي، روح المعاني (49/4)، البيضاوي، أنوار التنزيل (90/2).

⁹ قال ابن حجر: "قيل فيه صرمة بن قيس، وصرمة بن مالك، وصرمة بن أنس، وقيل فيه قيس بن صرمة، وأبو قيس بن صرمة، وأبو قيس بن عمرو. فيمكن أن يقال: إن كان اسمه صرمة بن قيس، فمن قال فيه قيس بن صرمة قلبه، وإنما اسمه صرمة، وكنيته أبو قيس، أو العكس" [ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة (424/3)]، وقيس بن صرمة هو ابن مالك بن عدي بن عمرو بن النجار الأنصاري، وهو الذي أنزل الله فيه وفي عمر: ﴿أَحِلُّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَعَفَا عَنْكُمْ﴾ (البقرة: 187). [انظر: السهيلي، الروض الأنف (389/2)].

حَضَرَ الْإِفْطَارُ أَتَى امْرَأَتُهُ فَقَالَ لَهَا: أَعِنْدِكَ طَعَامٌ؟ قَالَتْ: لَأَ، وَلَكِنْ أَنْطَلِقُ فَأَطْلُبُ لَكَ، وَكَانَ يَوْمَهُ يَعْمَلُ، فَغَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ، فَجَاءَتْهُ امْرَأَتُهُ، فَلَمَّا رَأَتْهُ قَالَتْ: خَيْبَةٌ لَكَ، فَلَمَّا انْتَصَفَ النَّهَارُ غُشِيَ عَلَيْهِ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾¹، فَفَرِحُوا بِهَا فَرَحًا شَدِيدًا، وَنَزَلَتْ: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾^{2,3}، و"خيبة لك" تعني: حرماناً⁴.

أما بالنسبة لمعنى الخيبة في اللغة، فإنه يدور حول المعاني الآتية⁵:

1 - حرمان الحظ.

2 - الفقر والجوع.

3 - الكفر والخسران.

أما في الاصطلاح، فإن الخيبة تعني: "فوت الطلب"⁶ و"انقطاع الأمل"⁷، وترى الباحثة أن هناك ارتباطاً بين المعنى اللغوي للخبية والمعنى الاصطلاحي لها؛ وذلك لأن الكفر والخسران والفقر والجوع والحرمان إنما ينمُّ عن انقطاع في الأمل وخسران في الأمانى.

كما أن هناك علاقة وثيقة بين الخيبة واليأس؛ فكلا اللفظين يحملان بين حروفهما انقطاع الأمل والرجاء، ولكن الخيبة تفترق عن اليأس في كونها لا تكون إلا بعد الأمل؛ فهي امتناع نيل

¹ سورة البقرة، آية 187 .

² سورة البقرة، آية 187 .

³ البخاري، أبو عبد الله، محمد بن إسماعيل (ت: 256هـ)، صحيح البخاري، الموسوم بـ(الجامع الصحيح المختصر)، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير - بيروت، (ط3/1407هـ-1987م)، كتاب الصوم، باب: قول الله جل ذكره: ﴿ ! " # \$ % & ' () ﴾ (البقرة: 187)، رقم (1816) (676/2).

⁴ انظر: ابن حجر، أبا الفضل أحمد بن علي العسقلاني (ت: 852هـ)، فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق: محب الدين الخطيب، دار المعرفة - بيروت، (بدون ذكر الطبعة ولا سنة النشر) (131/4).

⁵ انظر: الأزهرى، تهذيب اللغة، (7/245).

⁶ الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن (ص: 160).

⁷ الألويسي، روح المعاني (49/4).

ما أمل، أما اليأس فقد يكون قبل الأمل، بالإضافة إلى أن اليأس نقيضه الرجاء، بينما الخيبة نقيضها الظفر¹.

المطلب الرابع: السأم

ورد ذكر (السأم) في القرآن الكريم ثلاث مرات، وذلك في سورتين²، واحدة مكية والأخرى مدنية، منها قوله تعالى في سورة فصلت المكية: ﴿لَا يَسْمُ إِلَّا نَسْنُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَعُوسُ قَنُوطٌ﴾³ ، أي: لا يملُّ الكافرُ من طلب الخير وهو: المال والصحة⁴.

أما في اللغة جاء السأم بمعنى الملل والضجر⁵، وبمعنى الموت⁶، "وقيل: عروق الذهب والفضة"⁷.

أما معنى السأم في الاصطلاح فإنه لا يختلف عن معناه في اللغة؛ فهو: "الملافة مما يكثر لبثه فعلاً كان أو انفعالاً...." ، قال الشاعر⁸:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش ثمانين حولاً لا أبا لك يسأم⁹ [بحر الطويل]

¹ انظر: العسكري، الفروق اللغوية (ص:245).

² وردت مادة (السأم) في القرآن الكريم على النحو الآتي: (تسأموا) مرة واحدة في سورة (البقرة: 282)، وورد لفظ (يسأم) مرة واحدة في (سورة فصلت: 49)، وورد لفظ (يسأمون) مرة واحدة في (سورة فصلت: 38)، [انظر: مادة (سأم) عند عبد الباقي، المعجم المفهرس (ص:338)].

³ سورة فصلت، آية 49 .

⁴ انظر: الطبري، جامع البيان (2/25).

⁵ انظر: ابن منظور، لسان العرب (280/12).

⁶ انظر: الرازي، مختار الصحاح (ص:135).

⁷ ابن سيده، المحكم (626/8).

⁸ هذا البيت من شعر زهير بن أبي سلمى، [انظر: ابن أبي سلمى، زهير، ديوان زهير بن أبي سلمى، شرح: الأعلام الشنتمري، المكتبة التجارية - مصر (بدون ذكر الطبعة ولا سنة النشر) (ص:12)].

⁹ الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن (ص:251).

ومن الملاحظ وجود علاقة بين السأم واليأس، وهذه العلاقة توضحها الآية الكريمة التي اجتمع فيها ذكر السأم واليأس، وهي قوله تعالى: ﴿لَا يَسْعَمُ إِلَّا نَسْنُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَعُوسُ قَنُوطٌ﴾¹؛ حيث إن الله سبحانه وتعالى وصف الإنسان الكافر في حالة طلبه الخير والنعمة وفي حالة أصابه الشر والنقمة، فهو في حالة الشر يصيبه اليأس والملل والإحباط، أما في حالة الخير فإنه لا يسأم ولا ييأس من طلبه والسعي للحصول عليه، فهنا يظهر تقارب المعنى بين اليأس والسأم من خلال المقابلة بين حالتي السراء والضراء بالنسبة للإنسان الكافر؛ فهو في الأولى لا يمل ولا يفتُر وفي الثانية ييأس ويقنط.

المطلب الخامس: الهلع

ذُكرَ الهلع في القرآن الكريم مرة واحدة في سورة المعارج، وهي مكية² في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾³، "قال ابن جريج⁴ في تفسير هذه الآية: يا ابن آدم إذا نزلت بك نعمة من الله فأنت كفور، وإذا نزع منك فيؤوس قنوط"⁵، يعني أن هذه الآية فسرت بما بعدها وهي قوله تعالى ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾⁶ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا⁷.

¹ سورة فصلت، آية 49.

² انظر: مادة (هلع) عند عبد الباقي، المعجم المفهرس (ص: 737).

³ سورة المعارج، آية 19.

⁴ "هو أبو خالد عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج القرشي بالولاء المكي (ت: 149هـ)، مولى أمية بن خالد بن أسيد أحد العلماء المشهورين، ويقال: إن جريجاً كان عبداً لأم حبيب بنت جبير زوجة عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العيص بن أمية فنسب ولاؤه إليه، ويقال إنه أول من صنف الكتب في الإسلام." [ابن خلكان، وفيات الأعيان (3/163 - 164)].

⁵ الرازي، فخر الدين محمد بن عمر التميمي، المعروف بابن الخطيب الشافعي، (ت: 606هـ)، التفسير الكبير الموسوم بـ(مفاتيح الغيب)، دار الكتب العلمية - بيروت، (ط1/1421هـ/2000م)، (17/152)، ابن عادل، أبو حفص، عمر بن علي الدمشقي، (ت: بعد 880هـ)، اللباب في علوم الكتاب، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية - بيروت، (ط1/1419هـ/1998م)، (10/444).

⁶ سورة المعارج، الآيتان (20، 21).

⁷ انظر: ابن كثير، أبو الفداء، إسماعيل بن عمر الدمشقي، (ت: 774هـ)، تفسير القرآن العظيم، دار الفكر - بيروت، (طبعة سنة 1401هـ)، (4/422).

وفي صحيح البخاري باب بعنوان "قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ إِذَا

مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ هَلُوعًا: ضجوراً¹.

أما الهلع في اللغة: "قيل: هو أسوأ الجزع"²، "والهْلُوع: مَنْ يَجْزَعُ وَيَفْزَعُ مِنَ الشَّرِّ، وَيَحْرَصُ وَيَشْحُ عَلَى الْمَالِ، أَوْ الضَّجُورُ لَا يَصْبِرُ عَلَى الْمَصَائِبِ"³، ويأتي الهلع أيضاً بمعنى: الحزن⁴، وبمعنى: الحرص⁵.

من خلال ما سبق ترى الباحثة: أن الهلع يدخل تحت نطاق اليأس؛ وذلك لأن من معاني الهلع: الجزع والحزن والضجر الذي يعني: "القلق من الغم"⁶، وهذه المعاني يحملها اليأس.

وفي نهاية هذا المبحث، فإنه من الملاحظ أن هناك ارتباطاً بين مفهوم اليأس ونظائره في القرآن الكريم؛ فاليأس يتضمن جميع معاني القنوط والإبلاس والخيبة والسأم والهلع، مع ظهور علامات الانكسار والضجر والحزن وفقدان الأمل عند اليأس.

¹ البخاري، صحيح البخاري، كتاب التوحيد (2740/6).

² ابن سيده، المحكم (124/1).

³ الفيروزآبادي، القاموس المحيط (ص: 1002).

⁴ انظر: ابن سيده، المحكم (124/1). الرازي، مختار الصحاح (ص: 290).

⁵ انظر: الفراهيدي، كتاب العين (107/1). ابن فارس، معجم مقاييس اللغة (62/6).

⁶ ابن منظور، لسان العرب (375/4).

الفصل الثاني
صور اليأس
وموقف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام منه

المبحث الأول: صور اليأس

المبحث الثاني: موقف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من اليأس

المبحث الأول

صور اليأس

المطلب الأول: اليأس من رحمة الله

إن رحمة الله واسعة جداً، لا تحُدُّها حدود، ولا تتخيلها عقول، يطمع فيها المؤمن والكفور، تنتزل على خلقه فإذا بها تضيء النفوس، وتجلو الهموم، وتؤمِّل القلب المحزون؛ ففي الحديث: "إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الرَّحْمَةَ يَوْمَ خَلَقَهَا مِائَةَ رَحْمَةٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً وَأَرْسَلَ فِي خَلْقِهِ كُلِّهِمْ رَحْمَةً وَاحِدَةً، فَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ لَمْ يَبْأَسْ مِنَ الْجَنَّةِ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعَذَابِ لَمْ يَأْمَنْ مِنَ النَّارِ"¹؛ لذا كان اليأس منها أمراً خطيراً، وخلقاً ذمياً، ومعصيةً كبيرة؛ فهو يُعدُّ من الكبائر، بل من أكبر الكبائر، ففي الأثر عن ابن مسعود أنه قال: "أكبر الكبائر: الإشراف بالله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله"²، حتى إنه قد ينقل صاحبه عن الملة، كما قال الطحاوي³.

فاليأس من رحمة الله تعالى يعدُّ سوء ظن بالله عز وجل، وطعناً في رحمته سبحانه؛ لأن من علم أن الله رحيم لا يستبعد أن يرحمه الله سبحانه؛ ولهذا كان القانط من رحمة الله ضالاً⁴.

وقد نهانا الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز عن اليأس من رحمته ومغفرته، قال جلَّ في علاه حكاية عن سيدنا يعقوب عليه السلام: ﴿وَلَا تَأْيَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْيَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾⁵، والروح: ما يجده الإنسان من نسيم الهواء فيسكن إليه،

¹ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، رقم (6104) (2374/5).

² الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب (360هـ)، المعجم الكبير، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي مكتبة الزهراء - الموصل، (ط2/1404هـ-1983م)، رقم (8784) (156/9).

³ انظر: الطحاوي، أبا جعفر، أحمد بن محمد بن سلامة، (ت:321هـ)، العقيدة الطحاوية، دار ابن حزم - بيروت، (ط1/1416هـ-1995م) (ص:21).

⁴ انظر: العثيمين، محمد بن صالح (ت:1421هـ)، القول المفيد على كتاب التوحيد، مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الجديدة، (طبعة سنة 1423هـ) (6/2).

⁵ سورة يوسف، آية 87 .

وتركيب الراء، والواو، والحاء يفيد الحركة والاهتزاز، فكل ما يهتز إنسان له ويلتذ بوجوده فهو روح، قاله الأصمعي¹.

و(رَوْحُ الله) الواردة في الآية الكريمة تعني: رحمته، وفرجه، وتنفيسه².

والياس من رحمة الله نوعان: ياس الكفار منها، وتركهم كل سبب يقربهم منها، ويأس العصاة بسبب كثرة جناباتهم التي أوحشتهم وملكت قلوبهم، فأحدثت لها الإياس³.

ولقد اطلع الله سبحانه وتعالى على سرائر بعض المؤمنين الذين أسرفوا على أنفسهم في لحظة بشرية طاغية، وقادهم عظم شعورهم بالذنب إلى الخوف المُقعد الذي قد يصل إلى القنوط في لحظة الرهبة الفاتلة، فكان هذا النداء المليء بالأمل والرجاء: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ اسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾⁴.

فدعاهم الحق سبحانه وتعالى إلى عدم اليأس والقنوط، ماداموا مؤمنين، ومادامت رحمة الله واسعة، حتى لو بالغوا في الذنوب والمعاصي؛ وذلك لأن "القلب الندي بالإيمان، المتصل بالرحمن، لا ييأس ولا يقنط مهما أحاطت به الشدائد، وادلهمت حوله الخطوب، وغاب الأمل في ظلال الحاضر؛... فإن رحمة الله قريب من المؤمنين المهتدين"⁵، أما الكفار - والعياذ بالله - فقد يئسوا من رحمة الله في الدنيا، ويئسوا من مغفرته وجنته في الآخرة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَايَةِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾⁶.

¹ انظر: ابن الجوزي، زاد المسير، (276/4).

² انظر: أبا حيان، محمد بن يوسف الأندلسي، (ت:745هـ)، البحر المحيط، تحقيق: الشيخ عادل عبد الموجود، وآخرين، دار الكتب العلمية - بيروت، (ط1422/1هـ-2001م)، (5/334).

³ انظر: السعدي، عبد الرحمن بن ناصر (ت:1376هـ)، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: ابن عثيمين، مؤسسة الرسالة - بيروت (طبعة سنة 1421هـ-2000م) (ص:629).

⁴ سورة الزمر، آية 53.

⁵ قطب، سيد (ت:1386هـ)، في ظلال القرآن، دار الشروق - القاهرة (طبعة سنة 1401هـ-1981م) (4/2148)، بتصرف.

⁶ سورة العنكبوت، آية 23.

ومعنى الرحمة هنا: الجَنَّة¹، وذكر أبو حيان في تفسيره أن هناك قولاً آخرَ في معنى الرحمة في هذه الآية، وهو: الدين، فيكون المعنى: أن الكفار يؤسوا من ديني، فلا أهديهم².

وبعد، فإن هذا هو النوع الأول من أنواع اليأس، والذي يدور حوله مدار هذا البحث، وإذا أُطلقَ لفظُ اليأس في ثنايا هذه المادة فالمقصود به هو هذا النوع، وهو ما يطلق عليه: اليأس المذموم، وهناك بالمقابل يأس محمود، لم يُذكر في القرآن الكريم بصورة مباشرة، لكنه موجود في ثنايا كتب الأخلاق والزهد؛ وهو اليأس مما في أيدي الناس، وقطع الرجاء بهم.

ويرى المناوي أن الغنى الحقيقي يكمن في هذا النوع من اليأس، يقول: "الغنى هو الإيأس: أي القنوط مما في أيدي الناس، أي ليس الغنى الحقيقي هو كثرة العرض والمال؛ بل هو غنى النفس وقنعها بما قسم لها، وقطع الآمال من الأموال التي بأيدي الناس، والإعراض عنها بالقلب، فيستغني بما حصل له لعلمه بأنه لم يتغير...، والمعنى: أنه إذا يؤس مما في أيدي الناس استغنى قلبه بالحق، وسكنت نفسه إلى ضمانه، وصار حراً عن التذلل لغيره، ويحصل ذلك بصفاء توحيد قلبه؛ بأن الخلق من ذروة العرش إلى منتهى تخوم العرش، لا يستقلون بنفع ولا ضر إلا بإذنه تعالى"³.

لذا فـ"الواجب على العاقل ترك الطمع إلى الناس كافة بكماله...، إذ الطمع فيما لا يشك في وجوده فقر حاضر، فكيف بما أنت شاك في وجوده أو عدمه"⁴.

¹ انظر: البغوي، أبا محمد، الحسين بن مسعود الفراء، (ت: 516هـ)، معالم التنزيل، تحقيق: خالد عبد الرحمن العك، دار المعرفة - بيروت، (464/3).

² انظر: أبا حيان، البحر المحيط، (143/7).

³ المناوي، محمد عبد الرؤوف (ت: 1031هـ)، فيض القدير شرح الجامع الصغير، المكتبة التجارية الكبرى - مصر، (ط1/1356هـ) (4/414)، بتصرف.

⁴ ابن حبان البستي، أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد (ت: 354هـ)، روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية - بيروت - طبعة سنة (1397 / 1977) (ص: 141)، بتصرف.

وقد أحسن صفي الدين¹ حين قال:

لا ترجُ غير الله سبحانه واقطع عرى الآمال من خلقه

لا تطلبن الفضل من غيره واضنن بماء الوجه واستبقه² [بحر الكامل]

المطلب الثاني: اليأس من إنزال الغيث

الغيثُ صورةٌ من صور الرحمة الإلهية، ومعنى من معانيها، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ^٣ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا^٤﴾، وقال عزَّ من قائل: ﴿فَإَنْظُرْ إِلَىٰ آثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ تُوْحَىٰ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا^٥ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ^٦﴾^٤؛ فرحمة الله في هذه الآية هي: الغيث، وأثرها: النبات⁶، "فالغيث سببُ رزقٍ عظيم وهو ما ينزله الله بقدر هو أعلم به، وفيه تذكير بهذه النعمة العظيمة على الناس، التي منها معظم رزقهم الحقيقي لهم ولأنعامهم، وخصَّها بالذكر دون

¹ هو: صفي الدين عبد المؤمن بن الخطيب البغدادي الحنبلي، (ت:739هـ) الإمام المتقن، مهَرَّ في علم الفرائض والحساب والجبر والمقابلة والهندسة والمساحة ونحو ذلك، شرح المحرر في الفقه ست مجلدات، وشرح العمدة مجلدان، وإدراك الغاية في اختصار الهداية، مجلد لطيف، وشرحه في أربع مجلدات، وغيرها. [انظر: ابن العماد، عبد الحي بن أحمد بن محمد العسكري، (ت:1089هـ)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، و محمود الأرناؤوط، دار بن كثير - دمشق، (ط1/1406هـ) (6/121)].

² هذا البيت من قول صفي الدين نفسه، انظر: ابن رجب الحنبلي، أبا الفرج عبد الرحمن بن أحمد (ت:795هـ)، السذيل على طبقات الحنابلة، تحقيق: عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، مكتبة العبيكان - الرياض، (ط1/ 1425هـ/2005م) (5/83).

³ سورة الفرقان، آية 48 .

⁴ سورة الروم، آية 50 .

⁵ انظر: الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد بن المختار (ت:1393هـ)، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، تحقيق: مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر - بيروت، طبعة سنة (1415هـ/1995م) (6/62).

⁶ انظر: الزمخشري، أبا القاسم محمود بن عمر، (ت:538هـ)، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، (بدون ذكر الطبعة ولا سنة النشر)، (3/492).

غيرها من النعم الدنيوية؛ لأنها نعمة لا يختلف الناس فيها؛ فهي أصل دوام الحياة بإيجاد الغذاء الصالح للناس والدواب"¹.

ومن أجل ذلك كله ينتظره الناس، وتتعلق به قلوبهم، ولا يكاد يتأخر عن موسمه قليلاً حتى يقتحم القنوط قلوب العباد؛ لما يتعلق به من زخرف الحياة وزينتها ومتاعها وضروريات البقاء فيها، قال أعرابي يصف نزول الغيث بعد القنوط: "بيننا الحاضر بين الناس والإبل، قد غمرهم الإشفاق، ورهبة الإملاق، وقد حقت الأنواء، ورفرف البلاء، واستولى القنوط على القلوب، وكثر من الذنوب، ارتاح ربك لعباده فأنشأ سحاباً مسجهاً كنهوراً معنونكاً محلولكاً، ثم استقل واحزأل فصار كالسما دون السماء، وكالأرض المدحوة وفوق لوح الهواء، فأحسب السهول، وأتأق الهجول، فأحيا الرجاء، وأمات الضراء، وذلك قضاء رب العالمين"².

ولو علم الناس أن الله أرحم بعباده من أنفسهم ما قنطوا، ولو علم الناس أن لكل أجل كتاباً ما قنطوا، ولو علم الناس أنه لن تموت نفس حتى تستكمل وتستوفي رزقها ما قنطوا؛ ولذلك صورَّ الله سبحانه هذه المسألة أدقَّ تصوير، صورَّ نفسيَّة الناس، وصورَّ معنى نزول الرحمة وانتشارها، قال عزَّ من قائل: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ ۗ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾³، وما أروعها من مقابلة، شملت نشر الرحمة في لحظة القنوط؛ ليصح الحمد لولي النعمة الذي بيده مفاتيح الرزق، وله الأمر كله.

والرحمة في هذه الآية تعني: المطر⁴، أو بركات المطر ومنافعه، وما يحصل به من الخصب، ويجوز أن يراد بها: رحمة الله الواسعة في كل شيء، كأنه قيل: ينزل الرحمة التي هي

¹ ابن عاشور، التحرير والتنوير (95/25)، بتصرف.

² ابن دريد، محمد بن الحسن الأزدي، (ت:321هـ)، المطر والسحاب، (بدون ذكر الدار ولا الطبعة ولا سنة النشر)، (ص: 4)، ومعنى الإشفاق: الخوف، والإملاق: الفقر، وقوله: حقت الأنواء: أي احتبست الأمطار، والكنهور من السحب: المترابك الثخين، والمعنونك: المرتفع، والمحلولك: الشديد السواد، واستقل واحزأل: يعني ارتفع، والمدحوة: المنبسطة، واللوح: الهواء بين السماء والأرض، وأحسب السهول: كفاها من المطر، وأتأق الهجول: ملأ ما بين الجبال، [انظر: المرجع السابق (ص: 5)].

³ سورة الشورى، آية 28.

⁴ انظر: الطبري، جامع البيان، (31/25). البغوي، معالم التنزيل، (128/4)

الغيث، وينشر سائر أنواع الرحمة¹، وسمي المطر بالغيث؛ لأنه يغيث الناس، أي: يجيرهم ويصلح حالهم²، والغيث ما كان نافعاً في وقته، والمطر قد يكون ضاراً ونافعاً في وقته وغير وقته³.

وقد صورَّ الله سبحانه وتعالى حال الناس عند انحباس المطر، وعند نزوله في موضع آخر، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدَّاقَ حَازِجًا مِّنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾﴾⁴.

"وقد ذمَّهم الله تعالى بأنه إذا حبس عنهم الفطرُ قنطوا من رحمته، وضربوا أذقانهم على صدورهم مبلسين، فإذا أصابهم برحمته ورزقهم المطر، استبشروا وابتهجوا، فإذا أرسل ريحاً فضرب زروعهم بالصفار، ضجُّوا وكفروا بنعمة الله، فهم في جميع هذه الأحوال على الصفة المذمومة، كان عليهم أن يتوكلوا على الله وفضله فقنطوا، وأن يشكروا نعمته ويحمدوه عليها فلم يزيدوا على الفرح والاستبشار، وأن يصبروا على بلائه فكفروا⁵.

لذلك يجب على الإنسان المسلم أن يحسن الظن بالله عز وجل، وأن يعلم أن الرزق بيده سبحانه يبسطه لمن يشاء، ويقدره لمن يشاء، وذلك كله عن حكمة وعدل، ولا ييأس ولا يقنط ويتوقع فرج الله ورحمته في كل لحظة، يقول القشيري: "فبعدهما أصاب الأرض جدوبةً، وأبطأ نزولُ الغيثِ، وقنطَ الناسُ من مجيء المطر، وأشرفَ الوقتُ على حدِّ القَوَاتِ، يُنَزَّلُ اللَّهُ بِفَضْلِهِ الْغَيْثَ، ويحيي الأَرْضَ بعد قنوطِ أهلها.. فكَذَلِكَ الْعَبْدُ؛ إِذَا ذَبَلَ غُصْنُ وَقْتِهِ، وَتَكَدَّرَ صَفْوُ وَدَّهِ،

¹ انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، (147/27).

² انظر: الثعالبي، أبا زيد، عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف (ت: 875هـ)، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي للطبوعات - بيروت (بدون طبعة ولا سنة نشر) (318/8).

³ انظر: الماوردي، أبا الحسن، علي بن محمد بن حبيب البصري، (ت: 450هـ)، تفسير الماوردي المسموم — (النكت والعيون)، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية - بيروت، (بدون ذكر الطبعة ولا سنة النشر) (203/5).

⁴ سورة الروم، الآيتان (48،49).

⁵ الزمخشري، الكشاف (492/3).

وكسفت شمسُ أنسه، وبعَدَ عن الحضرةِ وساحاتِ القربِ عَهْدُهُ فلربما ينظر إليه الحقُّ برحمته؛
فينزل على سِرِّه أمطارَ الرحمة، ويعود عودُهُ طرياً، ويُنبِتُ في مشاهدة أنسه ورداً جَنِيًّا¹.

المطلب الثالث: يأس الكفار من الآخرة

الدنيا مزرعة الآخرة، والحياة ممرٌ لما بعد الموت، وربُّ الدنيا هو ربُّ الآخرة.

والذين ييأسون من رحمة الله في أمور الحياة والبقاء والرزق؛ بسبب بُعدهم عن الله عز وجل، أولى بهم أن يُتبعوا ذلك اليأس يأساً آخر، يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً، والأمر يومئذٍ لله.

قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَآ تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَيسُوْا مِنَ
الْآخِرَةِ كَمَا يَيسَ الْكُفَّارُ مِنَ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾²، ففي هذه الآية نهيٌّ عن موالاته من
غضب الله عليهم، وهم اليهود والنصارى وسائر الكفار، الذين استحقوا من الله الطرد والإبعاد،
ويئسوا من ثواب الآخرة ونعيمها³.

وقد أورد الطبري رأيين في تأويل قوله تعالى: ﴿قَدْ يَيسُوْا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَيسَ

الْكُفَّارُ مِنَ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾⁴:

"الرأي الأول: أن معنى ذلك: قد يئس هؤلاء القوم الذين غضب الله عليهم من اليهود من ثواب
الله في الآخرة وأن يُبعثوا، كما يئس الكفار الأحياء من أمواتهم، الذين هم في القبور، أن يرجعوا
إليهم .

¹ التفسير، أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك (ت: 514هـ)، تفسير القشيري، الموسوم بـ (لطائف
الإشارات)، تحقيق: عبد اللطيف حسن عبد الرحمن، دار الكتب العلمية - بيروت، (ط1/1420هـ - 2000م) (3/166 -
167).

² سورة الممتحنة، آية 13 .

³ انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (4/357).

⁴ الطبري، جامع البيان (28/81-82).

والرأي الثاني: أن معنى ذلك: قد يئسوا من الآخرة أن يرحمهم الله فيها، ويَغْفِرَ لهم، كما يئس الكفار الذين هم أصحاب قبور قد ماتوا وصاروا إلى القبور، من رحمة الله وعفوه عنهم في الآخرة؛ لأنهم قد أيقنوا بعذاب الله لهم".

وبعد ما ذكر هذين القولين، رجح الطبري القول الثاني قائلاً: "وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب قول من قال: قد يئس هؤلاء الذين غضب الله عليهم من اليهود من ثواب الله لهم في الآخرة وكرامته؛ لكفرهم وتكذيبهم رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم على علم منهم بأنه لله نبي، كما يئس الكفار منهم الذين مضوا قبلهم فهلكوا فصاروا أصحاب القبور، وهم على مثل الذي هؤلاء عليه، من تكذيبهم عيسى صلوات الله عليه، وغيره من الرسل من ثواب الله وكرامته إياهم، وإنما قلنا ذلك أولى القولين بناويل الآية؛ لأن الأموات قد يئسوا من رجوعهم إلى الدنيا، أو أن يبعثوا قبل قيام الساعة؛ المؤمنون والكفار، فلا وجه لأن يخص بذلك الخبر عن الكفار، وقد شركهم في الإياس من ذلك المؤمنون"¹.

هذا هو حال اليهود - كما تصوره الآية الكريمة - قد قطعوا ما بينهم وبين الله، ويوشك ما بينهم وبين الناس أن ينقطع، كان هؤلاء يملكون من أسباب التوبة والرجوع إلى الله في حياتهم الدنيا، ولكن كبرهم وعدم رؤيتهم إلا من تُقْبِ أنفسهم الموبوءة، قادهم إلى مقولات تُغْلِقُ دونهم كل أبواب الرحمة والمغفرة؛ فهم الذين قالوا: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُوبَةٌ﴾²، فوصفوا الله بما لا يليق ببعض خلقه، وهم الذين قالوا: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَى﴾³، فجعلوا المصائر في اليوم الآخر لهم وحدهم، وادَّعوا ذلك الحق، ومع ذلك كله يقولون: ﴿حَنَّ أَبْتَوُا اللَّهَ وَاحْبَبُوهُ﴾⁴، فادَّعوا أقرب الصلوات، مع أنهم اتصفوا بأبشع الصفات، فحيل بينهم وبين ما يشتهون.

¹ الطبري، جامع البيان (83/28).

² سورة المائدة، آية 64.

³ سورة البقرة، آية 111.

⁴ سورة المائدة، آية 18.

ولما عاينوا المصير الآخر، سواء كان ذلك في أول منازل الآخرة في قبورهم، أو في عرصات القيامة، رجعوا إلى أنفسهم المنكودة، فلم يجدوا في سجلات أعمالهم وصحائفهم المكتوبة غير الكبر الذي قدّموه، والمعصية التي أسلفوها، ومحادّة الله ورسوله، فهل يمكن لهؤلاء إلا أن يصطدموا بصخرة اليأس والقنوط فتنتفخ تلك الرؤوس الضالة!!؟

والقارئ في القرآن الكريم يجد كثيراً من الآيات التي تصف حال الكفار والفسقة والمجرمين عند معاينتهم العذاب يوم القيامة، وتصور نفسياتهم اليائسة وقلوبهم المنحرفة أسفاً وندماً، قال تعالى: ﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا آمَنَّا وَإِحْيَيْتَنَا أَتْنَتِنِ فَأَعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾¹.

يقول الشيخ المراغي: "وهذا أسلوب يستعمل في التخاطب حين اليأس، قالوه تحييراً أو تعللاً؛ عسى أن يتاح لهم الفرج، ونحو هذه الآية قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾²، وقوله: ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِن عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾³ "4.

وفي قوله تعالى: ﴿ إِذ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴾⁵، يتبرأ المتبوعون من الأتباع، "وبين تعالى ما لأجله يتبرؤون منهم، وهو عجزهم عن تخليصهم من العذاب الذي رأوه؛ لأن قوله: ﴿ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴾ يدخل في معناه أنهم لم يجدوا إلى تخليص أنفسهم وأتباعهم سبباً، والأيس من كل

¹ سورة غافر، آية 11.

² سورة السجدة، آية 12.

³ سورة المؤمنون، آية 107.

⁴ المراغي، أحمد مصطفى (ت:1364هـ)، تفسير المراغي، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده - مصر، (بدون ذكر الطبعة ولا سنة النشر) (51/24).

⁵ سورة البقرة، آية 166.

وجه يرجو به الخلاص مما نزل به وبأوليائه من البلاء، يوصف بأنه تقطعت به الأسباب"¹،
 "وعند ذلك يتضاعف حزن الأتباع، وتشتد حسرتهم، ويقطع اليأس نياط قلوبهم؛ حين لم ينالوا
 منالاً من هؤلاء الذين غرروا بهم، وأوردوهم هذا المورد الوبيل، وإذ ذاك تنطلق ألسنتهم بكلمات
 تتميز غيظاً ويأساً: ﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا﴾²، فهم إنما يُتَمَتِّمُونَ -
 في يأس مغلَق - أن يردوا هم ورؤسأؤهم إلى هذه الدنيا؛ ليراجعوا حسابهم معهم، على ضوء ما
 تكشف لهم في هذا الموقف؛ وليصموا آذانهم عن كل دعوة باطلة يدعونهم إليها"³.

وعند قوله تعالى: ﴿وَرَاءَ الْمُجَرِّمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عِنَّا
 مَصْرَفًا﴾⁴، يقول القشيري واصفاً حال المجرمين ساعة معاينتهم العذاب: "إذا صارت الأوهامُ
 منقطعة، والمعارفُ ضروريةً، والنارُ مُعَايِنَةً استيقنوا أنهم واقعون في النار، فلا يُسْمَعُ لهم عُذْرٌ،
 ولا تنفع لهم حيلةٌ، ولا تُقْبَلُ فيهم شفاعَةٌ، ولا يؤخذ منهم فداء ولا عدل ... لقد استمكنتُ الخبيبةُ،
 وغلبَ اليأسُ، وحصلَ القنوطُ، وهذا هو العذاب الأكبر"⁵.

أما المنافقون - والعياذ بالله - فقد قطع رجأؤهم وطمعهم برحمة الله تعالى، قال تعالى
 مخاطباً نبيه الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم: ﴿أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ
 تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾⁶، وقد ذكر السبعين هنا للمبالغة في اليأس من
 طمع المغفرة لهم.⁷

¹ الرازي، مفاتيح الغيب (189/4-190).

² سورة البقرة، آية 167.

³ الخطيب، عبد الكريم، التفسير القرآني للقرآن، دار الفكر العربي - القاهرة، (بدون ذكر الطبعة ولا سنة النشر)، (186/1).

⁴ سورة الكهف، آية 53.

⁵ القشيري، لطائف الإشارات (225/2).

⁶ سورة التوبة، آية 80 .

⁷ انظر: الخازن، علاء الدين علي بن محمد، (ت:741هـ)، تفسير الخازن الموسوم بـ (لباب التأويل في معاني التنزيل)، دار الفكر - بيروت، (طبعة سنة 1399هـ/1979م) (129/3).

والكلام وإن كان في حق اليهود والكفار والمنافقين إلا أن في الأمر متسعاً إذا طبقنا القاعدة التي تقول: إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب¹. وسواء أكان اليأس عند الكافرين من رحمة الله يوم القيامة، أم كان اليأس من أصحاب القبور من العودة للدينا، فإن ما يقدمه العبد من محاربة لهواه، وتَقَرُّبٍ لمولاه، وتتبعٍ لهداه، كلها مؤهلات ترفع العبد إلى منزلة من يستحقون رحمة الله في لحظة الشدة والكره.

المطلب الرابع: يأس الكفار من دين الله

في المطالب السابقة كان الحديث عن اليأس من إنزال الغيث، وعن يأس الكفار من رحمة الله، ويأسهم من الآخرة وقنوطهم مما عند الله، أما في هذا المطلب فسيكون الحديث عن يأس آخر، له مدلوله السلبي في تركيبية الكفار النفسية؛ بل هو مؤشر واضح على الهزيمة من الداخل، وهو في الوقت نفسه بشارة للمسلمين بوهن الكفار، وانقطاعهم عن رافدٍ عظيمٍ من روافد الثبات والقوة في صراعهم معهم، وهذا فيه إشارة واضحة على توجه المسلمين إلى خشية الله فحسب؛ حيث منه الحول والقوة والطول، وضرورة وإلزامية عدم خشية الكافرين.

قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا²﴾، وقد جاء في صحيح البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْيَهُودِ قَالَ لَهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ آيَةٌ فِي كِتَابِكُمْ تَقْرُؤُونَهَا لَوْ عَلَيْنَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ نَزَلَتْ لَاتَّخَذْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا قَالَ: أَيُّ آيَةٍ قَالَ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا³﴾"

¹ هذه قاعدة فقهية عليها جمهور العلماء. [انظر: السبكي، علي بن عبد الكافي، الإبهاج في شرح المنهاج على منهاج الوصول إلى علم الأصول، تحقيق: جماعة من العلماء، (ط1404/1هـ)، دار الكتب العلمية - بيروت، (2/185). البخاري، علاء الدين عبد العزيز، كشف الأسرار عن أصول فخر الإسلام البزدوي، تحقيق: عبد الله محمود محمد عمر، دار الكتب العلمية - بيروت، (طبعة سنة 1418هـ - 1997م)، (2/390)].

² سورة المائدة، آية 3.

³ سورة المائدة، آية 3.

قال عمرُ: قد عَرَفْنَا ذلكَ اليَوْمَ وَالْمَكَانَ الذي نَزَلَتْ فيه على النبي صلى الله عليه وسلم وهو قائمٌ بِعَرَفَةَ يومَ جُمُعَةٍ¹.

أما في معنى الآية فيقول الطبري: "الآن انقطع طمع الأحزاب، وأهل الكفر والجحود، أيها المؤمنون من دينكم ... أن تتركوه فترتدوا عنه راجعين إلى الشرك"².

وهذا ما يحصل الآن، ويمكن لمسه في حاضرنا اليوم، وعلى مستوى العالم أجمع، ومما يدل على ذلك كثرة الداخلين في الإسلام يومياً³، على الرغم من كل محاولات الكفار والمغرضين من صدهم وإشاعة الفتن بينهم.

يقول سيد قطب: "وأحسب - والله أعلم - أن اليهود الصهيونيين، والنصارى الصليبيين، كليهما، قد يؤسوا من هذا الدين في هذه المنطقة الإسلامية الواسعة في إفريقيا وآسيا وأوروبا كذلك، يؤسوا من أن يحولوا الناس فيها إلى الإلحاد - عن طريق المذاهب المادية - كما يؤسوا كذلك من تحويلهم إلى ديانات أخرى عن طريق التبشير أو الاستعمار؛ ذلك أن الفطرة البشرية بذاتها تنفر من الإلحاد، وترفضه حتى بين الوثنيين - فضلاً على المسلمين - وأن الديانات الأخرى لا تجرؤ على اقتحام قلب عرف الإسلام، أو حتى ورث الإسلام!"⁴.

لذلك ورد النهي عن خشيتهم؛ فإن يأس العدو من نيل عدوه يزيل بأسه، ويذهب حماسه، ويقعده عن طلب عدوه، فلما أخبر عن يأسهم طمأن المسلمين من يأس عدوهم، فقال: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ﴾⁵.

ولسائل أن يسأل: لماذا وقعت هذه الآية بعد ذكر الكثير من المنهيات والمحرمات؟ وهل لذلك مناسبة أو دلالة؟ ولتوضح الإجابة عن هذا التساؤل، سيتم عرض سياق الآية الكريمة، قال

¹ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب زيادة الإيمان ونقصانه، رقم (45) (25/1).

² الطبري، جامع البيان، (78/6).

³ انظر: <http://www.almtoon.com/show.php?id=29>

⁴ قطب، في ظلال القرآن، (1032/2).

⁵ انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، (101/6).

تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ
وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصَبِ
وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ^ج ذَلِكَمُ فِسْقٌ^ط الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا
تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ^ح الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ
الْإِسْلَامَ دِينًا^ج فَمَنْ أَضْطَرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرٍ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ^ل فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ^ك 1.

يقول صاحب الدرر مجيباً عن هذا التساؤل: "ولما كانت هذه المنهيات معظم دين أهل الجاهلية، وكان سبحانه قد نهاهم قبلها عن إحلال شعائر الله، والشهر الحرام، وقاصدي المسجد الحرام بعد أن كان أباح لهم ذلك في بعض الأحوال والأوقات بقوله: ﴿ وَأَقْتُلُوهُمْ^ك حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ^ط وَأَخْرِجُوهُمْ^ط مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ^ط.... وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ^ط عِنْدَ الْمَسْجِدِ^ط الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ^ط 2، ﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ^ك 3، ﴿ وَأَقْتُلُوهُمْ^ك حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ^ك 4، علم أن الأمر بالكف عن انتهاز الفرص؛ إنما هو للأمن من الفوت، وذلك لا يكون إلا من تمام القدرة، وهو لا يكون إلا بعد كمال الدين وإظهاره على كل دين - كما حصل به الوعد الصادق - وكذا الانتهاء عن جميع هذه المحارم؛ إنما يكون لمن رسخ في الدين قدمه، وتمكنت فيه عزائمه وهممه، فلا التفات له إلى غيره ولا همه إلى سواه، ولا مطمع لمخالفه فيه، فعقب سبحانه النهي عن هذه المناهي كلها بقوله على سبيل النتيجة والتعليل: ﴿ الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ^ح وَاخْشَوْنَ^ح 6، "فهذه المحرمات هي التي تحقق بها أهل الكفر كمال المخالفة، فأيسوا معها من المواصلة والمؤالفة"⁷.

¹ سورة المائدة، آية 3 .

² سورة البقرة، آية 191 .

³ سورة البقرة، آية 194 .

⁴ سورة البقرة، آية 191 .

⁵ سورة المائدة، آية 3 .

⁶ البقاعي، نظم الدرر (2/392،391).

⁷ المرجع السابق (2/394).

ويجب صاحب الضلال عن التساؤل نفسه، معللاً ورود هذه الآية في هذا الموقع؛ بأن الدين كلُّ متكامل لا يتجزأ، وأن الدين الذي يؤس منه الكفار لا فرق فيه بين ما يختص بالتصور والاعتقاد، وما يختص بالشعائر والعبادات، وما يختص بالحلال والحرام، وما يختص بالتنظيمات الاجتماعية والدولية، فكلها في مجموعها تكون المنهج الرباني الذي ارتضاه الله للمؤمنين¹.

وبعد، فإنه قد أصبح واضحاً جلياً لدى الكفار أن الدين قد اكتمل، وأن النعمة قد تمت، وأن الله رضي للمسلمين هذا الدين؛ دستوراً وشرعاً ومنهاجاً وحكماً، وهذا يعني أن حلقة الوصل مع الله قد اكتملت، وأصبح حول المسلمين وقوتهم مستمداً من الله الذي بيده ملكوت كل شيء.²

لقد أصبح مستقراً في أذهان أهل ملة الكفر أن النصر من عند الله، وأن عباده المؤمنين على خير حال مع ربهم؛ ولذلك فقد هؤلاء الكافرون أهم مرتكزات القوة النفسية التي تؤهلهم للصراع والغلبة، ومما زاد في ترسيخ هذه الفكرة في أذهانهم، وزاد في بأسهم، وخذلانهم، قول المولى عز وجل: ﴿مَنْ كَانَ يُظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدَهُ مَا يَغِيظُ﴾²، ومعنى هذه الآية الكريمة: يا أيها المعادي للرسول محمد صلى الله عليه وسلم، الساعي في إطفاء دينه، الذي يظن بجهله، أن سعيه سيفيده شيئاً، اعلم أنك، مهما فعلت من الأسباب، وسعيت في كيد الرسول، فإن ذلك لا يذهب غيظك، ولا يشفي كمدك؛ فليس لك قدرة في ذلك، ولكن سنشير عليك برأي، تتمكن به من شفاء غيظك، ومن قطع النصر عن الرسول، إن كان ممكناً، ائت الأمر من بابه، وارثق إليه بأسبابه، اعمد إلى حبل من ليف أو غيره، ثم علقه في السماء، ثم اصعد به، حتى تصل إلى الأبواب التي ينزل منها النصر، فسدّها، وأغلقها، واقطعها، فبهذه الحال تشفي غيظك، فهذا هو الرأي والمكيدة، وما سوى هذه الحال فلا يخطر ببالك أنك تشفي بها غيظك، ولو ساعدك من ساعدك من الخلق. وهذه الآية الكريمة فيها من الوعد والبطارة بنصر الله لدينه، ولرسوله،

¹ انظر: قطب، في ظلال القرآن (841/2).

² سورة الحج، آية 15.

وعبادة المؤمنين ما لا يخفى، ومن تأييس الكافرين، الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، والله متم نوره، ولو كره الكافرون¹.

ولقد فقد الشيطان - من قبل ذلك - الأمل في صد المسلمين عن دينهم، وإغرائهم من أجل عبادته والانقياد إليه، ففي الحديث: "إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ"²، و"هذا الحديث من معجزات النبوة ... ومعناه: أيس أن يعبداه أهل جزيرة العرب، ولكنه سعى في التحريش بينهم؛ بالخصومات والشحناء والحروب والفتن ونحوها"³.

ومن هنا فقد أصبح هذا المعنى مستقراً أيضاً في أذهان المسلمين، مما يؤهلهم للجرأة والجهاد والمراغمة، والثقة بوعد الله ونصره، وأن الغلبة لهم بإذن الله رب العالمين.

وهذا المعنى نفسه ينتقل بانتقال آيات القرآن عبر الأجيال المسلمة، فهو توجيه محكم لكل من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً، وما أحرانا أن نستوعب هذا الدرس ونتمثله فينا، في الوقت الذي تكالبت فيه الأمم علينا، ورمتنا عن قوس واحدة، فلا نزداد إلا جرأة عليهم بالقوة نفسها التي نزداد فيها خشية لله.

المطلب الخامس: اليأس من الإقناع

قد يصل الإنسان في بعض الأحيان إلى طريق مسدود في نقاشه مع الآخرين؛ عند محاولته إيصال فكرة أو تحقيق هدف؛ وذلك عندما تعترض طريقه عوائق محبطة، أو آراء مخالفة، تحمل صاحب الفكرة على القعود، والتخلي عن رأيه، واليأس من إجابة الآخرين له.

¹ السعدي، تيسير الكريم المنان، (ص: 535).

² مسلم، أبو الحسين بن الحجاج القشيري النيسابوري، (ت: 261هـ)، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، (بدون ذكر الطبعة ولا سنة النشر)، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس وأن مع كل إنسان قرين، رقم (2812) (2166/4).

³ النووي، أبو زكريا، يحيى بن شرف بن مري، (ت: 676هـ)، صحيح مسلم بشرح النووي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، (ط: 1392/2هـ) (156/17)، بتصرف.

وهذا ما حصل مع أخوة يوسف عليه السلام، عندما حاولوا إقناعه في رد أخيهام إليهم، مع أنه كان لهم حوارات عديدة ناجحة قبل ذلك؛ مثل حوارهم مع أبيهم يعقوب عليه السلام، وحوارهم ونقاشاتهم فيما بينهم من أجل إبعاد يوسف عليه السلام، ولكن لحكمة إلهية، شاء المولى عز وجل أن يفشلوا في إقناع يوسف عليه السلام في التخلي عن أخيه، ولكن في نهاية المطاف جمعهم الله سبحانه مع بعضهم تحت سقف واحد، وألّف بين قلوبهم بعد طول عناء وتعب وضيق.

إنها صورة من صور الصراع لإثبات الذات والموقف، صورة من صور صراع الإرادات؛ ليثبت كل طرف إرادته، وينصر فكرته.

وعندما يعجز أحد الأطراف عن إثبات ذاته وفكرته بالقوة، فإنه يلجأ إلى الإقناع والمحاورة بكل ما أوتي من قوة؛ ليثني الخصم عن إرادته، وإبطال فكرته.

إنه يريد بكل تلك القوة الحوارية أن يوصل خصمه إلى حافة اليأس من المواصلة والاستمرار والتأثير، لكن قوة الحق تحميه وتقيه الانهيار، والثبات على الموقف يقتل اليأس في الداخل.

وما أروع من مشهد حين ينسلُّ أحد الفريقين يحمل معه إخفاقه وخيبته ويأسه، بعد أن كان قد أعدَّ ذلك لخصمه الذي صبر.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْسُّوْا مِنْهُ خَلَصُوا حَيًّا ۗ قَالَ كَبِيْرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوْا أَنَّ أٰبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَّوْتَقًا مِّنَ اللّٰهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنَ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْتِيَ لِيْ أٰبَى أَوْ تَحْكُمَ اللّٰهُ لِيْ ۗ وَهُوَ خَيْرُ الْحٰكِمِيْنَ ۗ﴾¹.

¹ سورة يوسف، آية 80 .

وقبل الخوض في معنى الآية الكريمة، لا بد من القول بأن وزن (استفعل) من أكثر الأوزان تشعباً في معانيها، وقد وقفت الباحثة على أكثر من عشرة معانٍ لغوية لصيغة (استفعل)، فهي تأتي¹:

- 1 - للسؤال والطلب إما بشكل صريح مثل: استكتبته، أو مقدر مثل: استخرجته.
- 2 - للتحويل والسيرورة مثل: استحجر الطين.
- 3 - بمعنى (فعل) مثل: قرأ واستقر.
- 4 - للتكلف نحو: استعظم، واستكبر.
- 5 - للاتخاذ، كاستعبد عبداً، واستأجر أجيراً.
- 6 - للوجود، كاستعظمته، إذا وجدته عظيماً.
- 7 - بمعنى (افتعل)، كاستحصد الزرع واحتصد.
- 8 - للمطاوعة، كأحكمه فاستحكم.
- 9 - للإغناء عنه، كاستحيا، واستأثر.
- 10 - للمصادفة، نحو: استكرمته، واستسمنته.

¹ هذه المعاني اللغوية جمعتها من الكتب الآتية، مع اختلاف عدد المعاني التي أوردها كل كتاب من هذه الكتب: ابن فارس، (ت: 395هـ)، صاحب في فقه اللغة، (بدون ذكر الدار ولا الطبعة ولا سنة النشر)، (ص: 56). الثعالبي، عبد الملك بن محمد، (ت: 429هـ)، فقه اللغة، (بدون ذكر الدار ولا الطبعة ولا سنة النشر)، (ص: 86). الزمخشري، (ت: 538هـ)، المفصل في صنعة الإعراب، تحقيق: د. علي بو ملحم، مكتبة الهلال - بيروت، (ط1/1993م)، (ص: 374). ابن الحاجب، أبو عمرو، عثمان بن عمر الدويني، (ت: 646هـ)، الشافية في علم التصريف، تحقيق: حسن أحمد العثمان، المكتبة المكية - مكة، (ط1/1415هـ/1995م)، (ص: 21). الرضي، محمد بن الحسن الاستراباذي، (ت: 686هـ)، شرح شافية ابن الحاجب، تحقيق: محمد نور الحسن، محمد الزفراف، محمد يحيى عبد الحميد، دار الكتب العلمية - بيروت، (بدون ذكر الطبعة ولا سنة النشر)، (111/1). ابن عقيل، بهاء الدين، عبد الله، (ت: 769هـ)، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر - سوريا، (طبعة سنة 1405هـ/1985م)، (4/264-265). السيوطي، (ت: 911هـ)، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تحقيق: عبد الحميد هندواوي، المكتبة التوفيقية - مصر، (بدون ذكر الطبعة ولا سنة النشر)، (307-306/3).

11 - لاختصار حكاية المركب، نحو: استرجع، إذا قال: إنا لله وإنا إليه راجعون.

12 - للإصابة على صفة، نحو: استعظمته واستسمنته واستجدته أي: أصبته عظيماً وسميناً وجيداً.

13 - للمبالغة، مثل: استقرّ.

وترى الباحثة أن كلمة (استيأسوا) التي وردت في الآية الكريمة، والتي جاءت على وزن (استفلوا)، تأتي بمعنى المبالغة في اليأس، وهو المعنى الأنسب والأقرب لروح الآية الكريمة، بالإضافة إلى أن معظم علماء التفسير اختاروا هذا المعنى¹، باستثناء البقاعي الذي جعله من باب الطلب². وهناك جماعة من المفسرين يقولون بأن (استيأس) هنا جاءت بمعنى: (يئس)³، ولكن لو كان الاستيأس بمعنى اليأس لجاؤ القرآن الكريم بلفظ (يئس) بدل (استيأس)، ومن المعلوم أن القرآن الكريم منزّه عن الزيادة؛ إذن لا بدّ أن يكون لـ (استيأس) معنى زائد عن (يئس)؛ والراجع: أن السين والتاء هنا جاءت للمبالغة والله تعالى أعلى وأعلم.

يقول الألوسي في معنى الآية الكريمة: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾⁴: "أي

يئسوا من يوسف عليه السلام، وإجابته لهم وإلى مرادهم، ... وقال غير واحد: إن السين والتاء زائدتان للمبالغة: أي يئسوا يأساً كاملاً؛ لأن المطلوب المرغوب مبالغ في تحصيله"⁵.

¹ انظر: الزمخشري، الكشاف، (2/465). الرازي، مفاتيح الغيب، (18/149). النسفي، مدارك التنزيل، (2/200). القمي، نظام الدين، الحسن بن محمد، (ت: بعد 850هـ)، غرائب القرآن ورغائب الفرقان، تحقيق: الشيخ زكريا عميران، دار الكتب العلمية - بيروت، (ط1/1416هـ/1996م)، (4/112). أبا السعود، إرشاد العقل السليم، (4/299). الشوكاني، فتح القدير، (3/46). الألوسي، روح المعاني، (13/34).

² انظر: البقاعي، نظم الدرر، (4/114).

³ انظر: ابن عطية، عبد الحق بن غالب الأندلسي، (ت: 541هـ)، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية - بيروت، (بدون ذكر الطبعة ولا سنة النشر)، (3/269). القرطبي، أبا عبد الله، محمد بن أحمد الأنصاري، (ت: 671هـ)، الجامع لأحكام القرآن، دار الشعب - القاهرة، (بدون ذكر الطبعة ولا سنة النشر)، (9/241). أبا حيان، البحر المحيط، (5/330). ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب، (11/177).

⁴ سورة يوسف، آية 80.

⁵ الألوسي، روح المعاني، (13/34)، بتصرف.

"ولعل حصول هذه المرتبة من اليأس لهم لما شاهدوه من عوذه بالله تعالى مما طلبوه، الدال على كون ذلك عنده في أقصى مراتب الكراهة، وأنه مما يجب أن يحترز عنه، ويعاذ بالله تعالى منه، ومن تسميته ذلك ظلماً بقوله: ﴿إِنَّا إِذَا لَطَلِمُونَ﴾¹، وكانت هي الكلمة الأخيرة في الموقف، وعرفوا أن لا جدوى بعدها من الرجاء؛ فانسحبوا يفكرون في موقفهم المخرج، أمام أبيهم حين يرجعون، وذلك بعد أن ينسوا من محاولة تخليص أخيهم الصغير³.

وهكذا، فقد "استحکم اليأس في أنفسهم، من قبول العزيز لشفاعتهم، واستعطافهم بعد أن أقام الحجة عليهم، بشرعهم وفتواهم، وأنه إن فعل غيره يكون ظالماً بمقتضى شريعتهم وشريعة ملك مصر"⁴.

المطلب السادس: اليأس من المحيض

المقصود باليأس من المحيض: "وصول المرأة إلى السنّ التي ينقطع عنها الحيض فيه عادةً، وتنتهي فيه قابليتها للحمل؛ أي تياس بعدها من الحمل؛ ولهذا سُمِّيَ هذا السنّ بـ(سنّ اليأس)"⁵، وقد جعل الله سبحانه وتعالى أحكاماً خاصة لهذه الفئة من النساء، منها قوله تعالى: ﴿وَالَّتِي يَبْسُنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أَرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحْضَنْ﴾⁶.

يقول الطبري في تفسيره لهذه الآية: "واللائي يبسن من المحيض من نساكن إن ارتبتم بالحكم فيهن، وفي عددهن، فلم تدروا ما هن، فإن حكم عددهن إذا طلقن وهن ممن دخل بهن

¹ سورة يوسف، آية 79.

² الألويسي، روح المعاني، (34/13).

³ انظر: قطب، في ظلال القرآن، (2023/4).

⁴ المراغي، تفسير المراغي، (26- 25/13).

⁵ دروزة، محمد عزّت، التفسير الحديث، دار إحياء الكتب العربية - القاهرة، (طبعة سنة 1383هـ)، (338/8).

⁶ سورة الطلاق، آية 4 .

أزواجهن، فعدتهن ثلاثة أشهر، ..وكذلك اللاتي لم يحضن من الجواري لصغر، إذا طلقهن أزواجهن بعد الدخول"¹.

وورد في سبب نزول هذه الآية: أنه لما نزلت عدة النساء في سورة البقرة في المطلقة والمتوفى عنها زوجها، قال أبي بن كعب: يا رسول الله، إن أناسا من أهل المدينة يقولون: قد بقي من النساء ما لم يذكر فيه شيء، قال وما هو؟ قال: الصغار والكبار وذوات الحمل، قال: فنزلت هذه الآية².

والحديث وإن كان حول مسائل فقهية في هذه الآية إلا أن كلمة اليأس لها بعد نفسي، يوحي بالضعف والذبول، والتراجع العاطفي، والقصور في المشاركة في البناء المجتمعي، بانقطاع التوالد والتناسل.

وفي القرآن الكريم تعبير آخر عن هذه المرحلة العمرية من حياة النساء، قال تعالى:

﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ
ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾³.

والقواعد من النساء: هن اللواتي قعدن عن الولد من الكبر من النساء، فلا يحضن ولا يلدن، وهن بذلك قد ينسن من البعولة فلا يطمنن في الأزواج⁴.

واليأس من الحيض يؤدي بطبيعة الحال إلى اليأس من الإنجاب؛ لذلك تعجب زكريا عليه السلام من بشارة الملائكة له ببحيى عليه السلام، على الرغم من كبر سنه وسن امرأته، قال

¹ الطبري، جامع البيان (142/28)، بتصرف.

² انظر: البيهقي، أبا بكر، أحمد بن الحسين بن علي، (ت:458هـ)، السنن الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز - مكة المكرمة، (طبعة سنة 1414هـ/1994م)، كتاب العدد، باب: سبب نزول الآية في العدة، رقم(15156) (414/7). الحاكم، أبا عبد الله، محمد بن عبد الله النيسابوري، (ت:405هـ)، المستدرک علی الصحیحین، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، (ط1/1411هـ/1990م)، كتاب التفسير، سورة الطلاق، رقم(3821)(534/2)، وقال عنه: "صحيح الإسناد ولم يخرجاه"، وعلق عليه الذهبي في التلخيص قائلا: صحيح.

³ سورة النور، آية 60 .

⁴ انظر: الطبري، جامع البيان (165/18).

تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلْمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَأُمْرَأَتِي عَاقِرٌ ۗ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۗ 1، "وعاقِر: أي عقيم لا تلد لكبر سنها، من العُقر وهو: العقم. يقال: عُقِرَت المرأة تَعُقِرُ عُقْرًا وَعُقْرًا فهي عاقِرٌ إذا بلغت سن اليأس من الولادة"2، "والمعنى: أبولد لي على سن الشيخوخة وكون امرأتي عاقراً؟ أي: بلغت سن من لا تلد"3.

وكذلك تعجبت سارة زوج إبراهيم عليه السلام عندما بشرتها الملائكة بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، في الوقت الذي قَعَدَتْ فيه عن الولد4، قال تعالى: ﴿ وَأُمْرَأَتُهُ قَانِئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ ﴿٦١﴾ قَالَتْ يَنْوَيْتَنِي ۙ أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ ۖ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٦٢﴾ 5.

وقال تعالى في موضع آخر: ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۗ قَالُوا لَا تَخَفْ ۗ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٦٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صِرَّةٍ فَاصْكَتْ وَجَهَّهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٦٩﴾ 6، "أي: أني لي الولد وأنا عجوز، قد بلغت من السن ما لا تلد معه النساء، ومع ذلك فأنا عقيم غير صالح رحمي للولادة أصلاً"7.

¹ سورة آل عمران، آية 40 .

² طنطاوي، محمد يوسف، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، (بدون ذكر الدار ولا الطبعة ولا سنة النشر)، (97/2).

³ أبو حيان، البحر المحيط، (469/2).

⁴ انظر: ابن أبي زمنين، محمد بن عبد الله، (ت: 399هـ)، تفسير القرآن العزيز، تحقيق: أبو عبد الله حسين بن عكاشة، محمد بن مصطفى الكنز، دار الفاروق الحديثة - القاهرة، (ط1/1423هـ-2002م) (299/2).

⁵ سورة هود، الآيات (71،72).

⁶ سورة الذاريات، الآيات (28،29).

⁷ السعدي، تيسير الكريم المنان، (ص:810).

المبحث الثاني

موقف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من اليأس

يدور محور هذا المبحث حول قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ

قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مِنْ نَشَاءٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾¹،

وقد تم تفصيل القول في وزن (استفعل) في المطلب السابق، تحت عنوان : اليأس من الإقناع؛ حيث وردت كلمة (استيأسوا) التي هي على وزن (استفعلوا)، وفي هذا المبحث أيضاً، وردت كلمة (استيأس) التي هي على وزن (استفعل)، ومن الجدير ذكره هنا: أن الخلاف بين المفسرين لم يجر على معنى (استيأس) هنا؛ فلم تتجاوز أقوالهم القول بأنها تأتي بمعنى (يئس)، أو المبالغة في اليأس، ولكن الخلاف جرى حول ما إذا كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يئسوا من نصر الله تعالى، أم من إيمان أقوامهم. ومن خلال تفسير هذه الآية، ومناقشة آراء العلماء فيها، ستبرز إجابات عن أسئلة كان لا بد من طرحها عند سماع هذه الآية الكريمة، مفادها: ما موقف الأنبياء من اليأس؟ وهل وصل الأنبياء فعلاً إلى درجة اليأس المذموم؟ وهل كان يأسهم من نصر الله وفرجه أم من إيمان أقوامهم؟

في البداية، ولكي تتضح الإجابة عن مثل هذه التساؤلات، لا بد من التصريح بأن هناك قراءتين متواترتين لهذه الآية، قراءة بالتخفيف: ﴿وَضُنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾، وقد قرأ أبو جعفر²، والكوفيون: ﴿كُذِبُوا﴾ بالتخفيف³، "وفيها وجهان من التفسير؛ أحدهما: حتى إذا استيأس الرسل من إيمان قومهم، وظن قومهم أن الرسل قد كذبوا، بمعنى: أخلفوا ما وعده من النصر، جاء الرسل نصرنا، فجعل الضمير في قوله: ﴿وَضُنُّوا﴾ للقوم، وجعل الظن موافقاً

¹ سورة يوسف، آية 110.

² هو يزيد بن القعقاع المدني الإمام، (ت: 132هـ)، أحد القراء العشرة، قرأ على موله عبد الله بن عباس، وعلى أبي هريرة، وابن عباس، وزيد بن ثابت، كان رجلاً صالحاً، ثقة، يقرئ الناس في المدينة، [انظر: الذهبي، أبا عبد الله، شمس الدين، محمد بن أحمد، (ت: 748هـ)، طبقات القراء، تحقيق: أحمد خان، (ط1418/1هـ/1997م)، (1/49-53)].

³ انظر: ابن الجزري، شمس الدين، محمد بن محمد بن يوسف، (ت: 833هـ)، النشر في القراءات العشر، تحقيق: علي محمد الضباع، المطبعة التجارية الكبرى، (بدون ذكر الطبعة ولا سنة النشر)، (2/296).

لفظه معناه. فإن قيل: كيف يجوز أن يحمل الضمير في ﴿وَضُنُّوا﴾ على القوم، والذي تقدم ذكره الرسل؟ قيل: إن ذلك لا يمتنع؛ لأن ذكر الرسل يدل على المرسل إليهم؛ فلهذا جاز أن يحمل الضمير على المرسل إليهم... والوجه الآخر: حتى إذا استئأس الرسل من إيمان قومهم، وظن قومهم أن الرسل قد كذبتهم فيما أخبروهم به من أنهم: إن لم يؤمنوا نزل بهم العذاب¹.

وهذه القراءة المتواترة أخرجها البخاري² عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْعَسَ الرُّسُلُ وَضُنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾³ خفيفة، ذهب بها هناك، وتلا: ﴿حَتَّى يَقُولَ الرُّسُلُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصَرَ اللَّهُ ءَلَا إِنَّ نَصَرَ اللَّهُ قَرِيبٌ﴾⁴، وأخرج الطبري عن ابن عباس قوله: (كانوا بشراً)، ثم تلا قوله تعالى: ﴿حَتَّى يَقُولَ الرُّسُلُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصَرَ اللَّهُ ءَلَا إِنَّ نَصَرَ اللَّهُ قَرِيبٌ﴾⁵، وورد عن سعيد بن جبير أنه قال في هذه الآية: نعم ألم يكونوا بشراً؟⁶.

وقرأ الباقر بالتشديد⁷ ﴿وَضُنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾، وهم: "أهل الحجاز والبصرة، وجعلوا الضمير في ﴿وَضُنُّوا﴾ للرسل، والظن بمعنى: اليقين، وحثهم في ذلك: أن ذكر الرسل قد تقدم، ولم يتقدم ذكر المرسل إليهم، فيجعل الضمير لهم، وإذا كان ذلك كذلك، فالأولى أن يجعل الضمير للرسل، فيكون الفعلان للرسل، ويصير كلاماً واحداً، ومعنى الآية: حتى إذا استئأس الرسل من إيمان قومهم، وظنوا أي: أيقنوا أن قومهم قد كذَّبواهم، جاءهم نصرنا أي: جاء

¹ ابن زنجلة، حجة القراءات، (ص: 366-367)، بتصرف.

² البخاري، صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: 214]، رقم (4252)، (1644/4).

³ سورة يوسف، آية 110.

⁴ سورة البقرة، آية 214.

⁵ سورة البقرة، آية 214.

⁶ انظر: الطبري، جامع البيان، (86/13).

⁷ انظر: ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، (296/2).

الرسَلْ نصرُنا. وقال قوم: ليس الظن بمعنى اليقين؛ بل لفظه معناه، قالوا: ومعنى الآية: حتى إذا استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم أن يصدقوهم، وظنت الرسل بأن من قد آمن بهم من قومهم قد كذبوهم، جاءهم نصر الله عند ذلك"¹.

وقد وردت هذه القراءة عن السيدة عائشة رضي الله عنها، فقد روى البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت لعروة بن الزبير وهو يسألها عن قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ﴾، قال: قلت: أَكُذِّبُوا أَمْ كُذِّبُوا؟ قالت عائشة: كُذِّبُوا قلت: فَكَيْفَ اسْتَيْسَسُوا أَنْ قَوْمَهُمْ كَذَّبُوهُمْ فَمَا هُوَ بِالظَّنِّ. قالت: أَجَلٌ لَعَمْرِي لَقَدْ اسْتَيْقَنُوا بِذَلِكَ فَقُلْتُ لَهَا: وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا؟ قالت: مَعَاذَ اللَّهِ لِمَ تَكُنُ الرُّسُلُ تَظُنُّ ذَلِكَ بِرَبِّهَا، قلت: فَمَا هَذِهِ الْآيَةُ؟ قالت: هُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ الَّذِينَ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَصَدَّقُوهُمْ فَطَالَ عَلَيْهِمُ النَّبَأُ وَاسْتَأْخَرَ عَنْهُمْ النَّصْرُ، حتى إذا استيأسَ الرُّسُلُ مِمَّنْ كَذَّبَهُمْ مِنْ قَوْمِهِمْ، وَظَنَّتْ الرُّسُلُ أَنَّ أَتْبَاعَهُمْ قَدْ كَذَّبُوهُمْ جَاءَهُمْ نَصْرُ اللَّهِ عِنْدَ ذَلِكَ².

وبعد عرض هاتين القراءتين الصحيحتين لهذه الآية، يتبين أن الرسل عليهم الصلاة والسلام لم ييأسوا من نصر الله، ولا من فرجه؛ وإنما يئسوا من إيمان أقوامهم، وهذا واضح جلي في رواية عائشة رضي الله عنها، حتى إن رواية ابن عباس رضي الله عنهما لا توحى بأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يئسوا من رحمة الله وفرجه، مع أن بعض المفسرين تأولوا كلام ابن عباس الذي جاء فيه: (أنهم كانوا بشراً) تأويلاً يتوافق مع عصمة الأنبياء، يقول الزمخشري: "فإن صح هذا عن ابن عباس، فقد أراد بالظن: ما يخطر بالبال، ويهجس في القلب من شبه الوسوسة، وحديث النفس على ما عليه البشرية، وأمّا الظن الذي هو ترجح أحد الجائزين على الآخر، فغير جائز على رجل من المسلمين، فما بال رسل الله الذين هم أعرف الناس بربهم، وأنه متعال عن خلف الميعاد، منزّه عن كل قبيح"³.

¹ ابن زنجلة، حجة القراءات، (ص:367).

² البخاري، صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ﴾ § | © (يوسف: 110)، رقم، (4418)، (1731/4).

³ الزمخشري، الكشاف، (347/2).

وترى الباحثة: أنه لا داعي لمثل هذه التأويلات؛ لأن ابن عباس لم يصرح بالفاعل، أي أنه لم يقل بأن الأنبياء هم الذين ظنوا، وقد ردّ ابن حجر هذه التأويلات قائلاً: "ولا يُظنّ بابن عباس أنه يُجوّزُ على الرسول أن نفسه تحدّثه بأن الله يخلف وعده؛ بل الذي يُظنّ بابن عباس أنه أراد بقوله: (كانوا بشراً) إلى آخر كلامه: من آمن من أتباع الرسل، لا نفس الرسل، وقول الراوي عنه (ذهب بها هناك) أي إلى السماء معناه: أن أتباع الرسل ظنوا أن ما وعدهم به الرسل على لسان الملك تخلف، ولا مانع أن يقع ذلك في خواطر بعض الأتباع"¹.

وهذا الكلام يتوافق مع قراءة السيدة عائشة رضي الله عنها، بالإضافة إلى أنها صحّحت فهم الصحابة لهذه الآية، ونفت أن يصدر مثل هذا الظن عن رسل الله، وأجازت أن يكون قد ورد ذلك عن أتباع الرسل.

بالإضافة إلى أن معظم المفسرين مالوا إلى هذا الرأي²، واستبعدوا أن يحصل اليأس من نصر الله للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فهذا هو الطبري يعلّق على مقالة ابن عباس: (أنهم كانوا بشراً، قد ظنوا)، فيقول: وهذا تأويلٌ وقولٌ غيرُهُ من التأويل أولى عندي بالصواب، وخلافه من القول أشبهه بصفات الأنبياء، والرسل إن جاز أن يرتابوا بوعدِ الله إياهم ويشكوا في حقيقة خيره، مع معابنتهم من حجج الله وأدلتها ما لا يعاينه المرسل إليهم فيعذروا في ذلك، فإن المرسل إليهم لأولى في ذلك منهم بالعدر، وذلك قولٌ إن قاله قائلٌ لا يخفى أمره"³.

¹ ابن حجر، فتح الباري، (369/8).

² باستثناء الزمخشري في الكشاف، (480/2)، والبقاعي في نظم الدرر، (114/4)، وأبي السعود في إرشاد العقل السليم، (310/4)، والسعدي في تيسير الكريم المنان، (ص: 407)، وسيد قطب في الظلال، (348/4)؛ فقد ذهبوا إلى أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يسوا من نصر الله تعالى، وإذا كان كلامهم صحيحاً، فماذا نفعل بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: 87]، وهل يصح أن يكون للأنبياء بأس من رحمة الله وفرجه، في الوقت الذي يصف الله سبحانه وتعالى به اليائسين بأنهم كافرون بالله، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام صفوة الخلق، ورسول الرب سبحانه وتعالى، يحملون بين جنبتهم أرقى نفس، وأصلح قلب؟!

³ الطبري، جامع البيان، (4664/6).

وها هو ابن جزري يضع الاحتمالين في تفسير هذه الآية، وهما: أن الأنبياء إما أن يكونوا
يئسوا من إيمان أقوامهم، أو من النصر. ومن ثم يستحسن الاحتمال الأول¹.

وأما الرازي فقد اختار هذا التفسير، ولم يورد تفسيراً غيره، فقال عند قوله تعالى:
﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَرَ الرُّسُلُ ﴾: "أي من إجابة القوم"²، واختارَ كلامَ عائشةَ رضي الله عنها
وتأويلها، وقال: "هو أحسن الوجوه المذكورة في الآية"³، وهذا ما ذهب إليه الصنعاني⁴،
والواحدي⁵، والسمرقندي⁶، من قبل.

ومن الجدير بالذكر "أن كلاً من القراءتين ترشد المسلمين وتوجههم وهم يحملون لواء
الدعوة إلى الله، فالقراءة الأولى تبين لهم إذا تيقنوا من إعراض المدعويين، ويئسوا من إيمانهم،
فحري بهم أن يطمئنوا إلى نصر الله سبحانه، فلا بد أن يصبروا،... أما القراءة الثانية، فإنها
تبين للمسلمين أن ما يكون من خطرات النفس وهو اجسها بسبب تأخر النصر، لا ينبغي أن يفل
عزائمهم أو أن يضعف إرادتهم،... قراءة التشديد تعلمنا أن لا نياس، وقراءة التخفيف ترشدنا
كي نتغلب على الوسواس والهواجس وخطرات النفس، فلكل قراءة وجهة حري بالدعاة إلى الله
أن يحسبوا لها حساباً، وهم يقارعون الباطل والشر"⁷.

نعم، لا شك أن الأنبياء عاشوا مرحلة دعوية صعبة وشاقة، تمثلت بطول البلاء، وتأخر
النصر، وطغيان الظلم والكفر، ولكن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لم يصلوا إلى مرحلة اليأس،
وحاشاهم، ممكن أن يكونوا يئسوا من إيمان أقوامهم، وممكن أن يكون أتباعهم قد يئسوا من

¹ انظر: الكلبي، محمد بن أحمد بن محمد الغرناطي، (ت: 741هـ)، التسهيل لعلوم التنزيل، دار الكتاب العربي - لبنان،
(ط1403/4هـ/1983)، (129/2).

² الرازي، مفاتيح الغيب، (38/23).

³ المرجع السابق، (181/18).

⁴ انظر: الصنعاني، عبد الرزاق بن همام، (ت: 211هـ)، تفسير القرآن، تحقيق: د. مصطفى مسلم محمد، مكتبة الرشد
- الرياض، (ط1410/1هـ)، (2329).

⁵ انظر: الواحدي، أبا الحسن، علي بن أحمد، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم
- دمشق، الدار الشامية - بيروت، (ط1415/1هـ)، (563/1).

⁶ انظر: السمرقندي، بحر العلوم، (213/2).

⁷ عباس، فضل، التفسير أساسياته واتجاهاته، مكتبة دنديس - عمان، (ط1426/1هـ/2005م)، (ص: 129)، بتصريف.

تحقق وعد الله لأنبيائه، وممكن أن يكون الأتباع قد شكوا بصدق أنبيائهم، ويئسوا من أقوالهم، ولكن من غير الممكن أن يخطر ببال نبي من الأنبياء أن الله سبحانه وتعالى لن يحقق وعده، أو أنه سبحانه لن ينصر نبيه.

ومما يؤيد ذلك، أن القرآن الكريم عرض علينا مواقف صعبة مرَّ بها أنبياء الله عليهم أفضل الصلاة والسلام، كان اليأس من رحمة الله هو النهاية المتوقعة، في مثل هذه المواقف لغيرهم من البشر، فقد مرَّ في ثنايا هذا البحث: ما عاناه سيدنا يعقوب عليه السلام من محن وابتلاءات صعبة، كان منها فقدته ليوסף وأخيه، فما كان منه إلا أن قال: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾¹، بل إنه أمر أبناءه بعدم اليأس من روح الله.

بل إن الذي ورد في القرآن الكريم، وكان وروده في عدة مواضع هو: أن الأنبياء يئسوا من إيمان أقوامهم، حتى إن بعضهم دعا على قومه بعد أن قطع الأمل من أن يؤمنوا.

فعندما بلغ اليأس من القوم مداه عند نوح عليه السلام، دعا ربه أن يأخذ قومه بعاجل ذنوبهم، قال تعالى حكاية عنه عليه السلام: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾² إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاَجِرًا كَفَّارًا﴾³.

يقول ابن عطية: "هذه المقالة قالها نوح عليه السلام بعد أن طال عمره، وتحقق اليأس عن قومه"⁴.

وقد دعا نوح عليه السلام على قومه بالضلال، يقول الله سبحانه وتعالى حكاية عنه: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾⁵، "فإن قلت: كيف جاز أن يريد لهم

¹ سورة يوسف، آية 86 .

² سورة نوح، الآيتان، (26،27).

³ انظر: الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، (993/12).

⁴ ابن عطية، المحرر الوجيز، (373/5).

⁵ سورة نوح، آية 24 .

الضلال ويدعو الله بزيادته؟ قلت: المراد بالضلال: أن يُخَذَلُوا وَيُمنَعُوا الألفاظ؛ لتصميمهم على الكفر ووقوع اليأس من إيمانهم، وذلك حسن جميل يجوز الدعاء به؛ بل لا يحسن الدعاء بخلافه"¹.

وقال تعالى في شأن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ (٨٧) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَيْفَكَاءَ إِلَهاتِهِ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٧) فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠) ²، فقد كان تَوَلَّى القوم عن إبراهيم عليه السلام هو نهاية المطاف في دعوته لهم، ومحاجتهم له، فقد انتهى الأمر بينه وبين قومه إلى اليأس منهم أن يؤمنوا، وإلى اليأس منه أن يَعْبُدَ ما يعبدون³، وبعد ما يؤس إبراهيم عليه السلام من إيمان قومه هاجر من موطنه، قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ⁴، فلما "بالغ إبراهيم في الإرشاد ولم يهتد قومه، وحصل اليأس الكلي حيث رأى القوم الآية الكبرى، ولم يؤمنوا، وجبت المهجرة"⁵.

وها هو صالح عليه السلام يتخلى عن قومه ويتركهم بعد اليأس منهم⁶، قال تعالى في شأنه عليه السلام: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَنْقُومِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحِينَ﴾ ⁷.

¹ الزمخشري، الكشاف، (622/4).

² سورة الصافات، الآيات، (83-90).

³ انظر: الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، (998/12).

⁴ سورة العنكبوت، آية 26.

⁵ الرازي، مفاتيح الغيب، (49/25).

⁶ انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (242/7).

⁷ سورة الأعراف، آية 79.

حتى إن الله سبحانه وتعالى يدعو المؤمنين إلى اليأس من إيمان الكفار واليهود في أكثر من موضع في القرآن الكريم، بعد أن استقر في علمه سبحانه وتعالى أنه لا إيمان لمثل هؤلاء الكفرة المعاندين، يقول المولى عز وجل: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ تَحَرَّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾¹. والله سبحانه وتعالى قادر على أن يهدي جميع الناس إلى الإيمان، ولكن شاءت إرادته سبحانه أن ينقسم الناس أمام هذا الدين إلى مؤمن وكافر، ومخلص ومناقق، وطائع وعاصٍ، وذلك كله عن حكمة وعدل.

وبعد أن عرض القرآن الكريم صورة الجفاف والقسوة والجذب التي كانت عليها قلوب بني إسرائيل في سياق هذه الآيات، وهي صورة الحجارة الصلدة التي لا تبيض فيها حياة، ولا يلين لها ملمس، وهي توحى باليأس من هذه الطبيعة الجامدة الخاوية، يلتفت السياق إلى المؤمنين، الذين يطمعون في هداية بني إسرائيل، ويحاولون أن يبثوا في قلوبهم الإيمان، وأن يفيضوا عليها النور بسؤال يوحى باليأس من المحاولة، وبالقنوط من الطمع؛ لأنه لا مطمع ولا رجاء في أن يؤمن أمثال هؤلاء؛ فلإيمان طبيعة أخرى، واستعداد آخر².

لذلك فقد أمر الله سبحانه وتعالى نبيه الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم بأن يترك الحزن والأسف والضيق على من لم يؤمن من قومه، وأن لا يلوم نفسه على عدم دخولهم في دين الله، قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَنِيعَ نَفْسِكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾³، "يعني: أشفق على نفسك أن تفتلها حسرة على ما فاتك من إسلام قومك"⁴، وفي سياق مشابه يقول المولى عز وجل: ﴿فَلَعَلَّكَ بَنِيعَ نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ إِنْ لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾⁵،

¹ سورة البقرة، آية 75 .

² انظر: قطب، في ظلال القرآن، (84/1).

³ سورة الشعراء، آية 3 .

⁴ الزمخشري، الكشاف، (305/3).

⁵ سورة الكهف، آية 6 .

و" المقصود منه أن يقال للرسول: لا يَعْظُمُ حزنك وأسفك بسبب كفرهم، فإننا بعثناك منذراً ومبشراً، فأما تحصيل الإيمان في قلوبهم فلا قدرة لك عليه، والغرض: تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم"¹، والله سبحانه وتعالى هو القائل: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾²، "أي لا تأسف ولا تحزن لزيادة طغيانهم وكفرهم؛ فإن غائلة ذلك موصولة بهم، وتبعته عائدة إليهم، وفي المؤمنين غنى لك عنهم"³.

فيأس الأنبياء من إيمان أقوامهم ثبت في القرآن الكريم في مواضع عديدة، أما يأسهم من نصر الله وفرجه فلم يرد ولا في موضع واحد لا بالتصريح ولا بالتلميح، بل كل الذي ورد هو أنهم ثبتوا وتعلقوا بخيار الأمل والرجاء في مواقف صعبة، كان اليأس فيها هو النتيجة المتوقعة في مثل هذه الحالات.

¹ الرازي، مفاتيح الغيب، (67/21).

² سورة المائدة، آية 68 .

³ الألوسي، روح المعاني، (200/6).

الفصل الثالث

أسباب اليأس وجزاء اليائسين

المبحث الأول: أسباب اليأس

المبحث الثاني: جزاء اليائسين

المبحث الأول

أسباب اليأس

المطلب الأول: الكفر والمعاصي

إنه لمن المفيد في بداية هذا المطلب أن توضح الباحثة أن هناك علاقة وثيقة، وتلازماً قوياً بين الكفر واليأس؛ فالكافر يئس من رحمة الله لا محالة؛ وما ذلك إلا لأنه قطع الصلة بينه وبين خالقه، واليئس من رحمة الله، القانط مما عنده سبحانه، كافر جاحد؛ إذا هو أصرَّ على اليأس، وداوم عليه، يقول سيد قطب مشيراً إلى هذه العلاقة: "ذلك أنه لا ييأس الإنسان من رحمة الله إلا حين يكفر قلبه، وينقطع ما بينه وبين ربه، وكذلك هو لا يكفر إلا وقد يئس من اتصال قلبه بالله، وجفت نداوته، ولم يعد له إلى رحمة الله سبيل"¹.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾²؛ فهم "لما كفروا أخرجوا أنفسهم عن محل الرحمة؛ لأن من يكون له جهة واحدة تدفع حاجته لا غير؛ يُرحم، وإذا كان له جهات متعددة لا يبقى محلاً للرحمة، فإذا جعلوا لهم آلهة، لم يعترفوا بالحاجة إلى طريق متعين؛ فبيأسوا من رحمة الله"³.

وقد عدَّ القرآن الكريم اليائسين من جملة الكافرين؛ حتى إنه استعمل أداة الحصر للدلالة على ذلك، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾⁴؛ وذلك "لعدم علمهم بالله تعالى وصفاته؛ فإن العارف لا يقنط في حال من الأحوال"⁵.

يقول الفخر الرازي: "واعلم أن اليأس لا يحصل إلا إذا اعتقد الإنسان أن الإله غير قادر على الكمال، أو غير عالم بجميع المعلومات، أو ليس بكريم، واعتقاد كل من هذه الثلاث يوجب

¹ قطب، في ظلال القرآن، (2731/5).

² سورة العنكبوت، آية 23.

³ الرازي، مفاتيح الغيب، (45/25).

⁴ سورة يوسف، آية 87.

⁵ أبو السعود، إرشاد العقل السليم، (303/4).

الكفر، فإذا كان اليأس لا يحصل إلا عند حصول أحدها، وكل منها كفر، ثبت أن اليأس لا يحصل إلا لمن كان كافراً¹.

وعلى نسق مشابه عدّ القرآن الكريم الفانطين من رحمة الله ضالين مخطئين، قال تعالى: ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْتَضُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّيَ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾²، وقد فسر السمعاني الضلال في هذه الآية بالكفر³؛ وذلك لأن القنوط من رحمة الله تعالى لا يحصل إلا عند جهل الإنسان بقدره الله تعالى، وبكونه منزهاً عن البخل والحاجة والجهل، وبكونه عالماً باحتياج ذلك العبد إليه، وهذه الأمور كلها سبب للضلال⁴.

فالإنسان إذا كان لا يؤمن بوجود رب خالق، فإنه إذا نزل به ما يكره من مصائب يراها شراً، استبد به اليأس والقنوط، ففقد كثيراً حزينا يجتر آلامه ويمضغ أحزانه، أو كان يؤوساً من حياته ومستقبله، وإذا أنعم الله عليه انطلق في متاع الدنيا واستغرق في لذاتها، أو نأى بجانبه عن عبادته وطاعته، واتبع شيطانه وهواه، فهو إما مسرف طاغ أو يؤوس قنوط، وهو في كلتا الحالتين أعمى البصيرة كفور، قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾⁵،⁶.

فالكفر معقل قوي لليأس، وأرض خصبة له، قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾⁷، أي "يئس من رحمة الله تعالى من حمل إلى موقف القيامة شركاً؛ لأن الظلم وضع الشيء في غير موضعه، ولا ظلم أشد من جعل المخلوق شريك من خلقه"⁸.

¹ الرازي، مفاتيح الغيب، (159/18).

² سورة الحجر، آية 56.

³ انظر: السمعاني، أبا المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار، (ت:489هـ)، تفسير القرآن، تحقيق: ياسر بن إبراهيم، وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن - السعودية، (ط1/1418هـ-1997م) (3/144).

⁴ انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، (157/19).

⁵ سورة الإسراء، آية 83.

⁶ انظر: الميداني، عبد الرحمن حسن حبنكة، الأخلاق الإسلامية وأسسها، دار القلم - دمشق، (ط5/1420هـ-1999م) (400/1).

⁷ سورة طه، آية 111.

⁸ النسفي، مدارك التنزيل، (69-68/3).

والناظر إلى حال الكفار الأجانب اليوم، فإنه سيلحظ ارتفاع حالات الانتحار عندهم¹؛ وما ذلك إلا لأنهم عاشوا فراغاً روحياً قاتلاً، مبتعدين كل البعد عن خالقهم، وعن الإيمان بقضاء الله وقدره، فلا غرابة في أن يستحكم اليأس والقنوط قلوبهم الخاوية ببسر وسهولة.

وقد جاء في القرآن الكريم أن الكفر باليوم الآخر، وإنكار البعث والنشور، يؤدي إلى اليأس والخيبة والخذلان، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾²، أي: أن الذين يكذبون بآيات الله تعالى، وينكرون لقاءه، إما أنهم سييأسون من رحمة الله تعالى يوم القيامة، أو أنهم يئسوا منها في الدنيا؛ لإنكارهم البعث والجزاء³، والحاصل أن يأسهم حاصل ومتحقق لا محالة؛ لأنهم لم يرجوا لقاء الله يوماً، ولا قال أحد منهم: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين⁴.

ولا يخفى على أحد منا ما للإيمان باليوم الآخر من ثمار زكية على النفس الإنسانية؛ فهو يطمئن النفس، ويزيل الهم، ويريح العقل من عناء التفكير؛ فإذا أصاب الإنسان المؤمن باليوم الآخر بلاءً من مرض أو فقر أو مصيبة فإنه يصبر، ويتذكر أن هناك يوماً لا بد من مجيئه، ستنتصب فيه الموازين، وسيثاب على صبره، وسيعلم حينها أن معاناته وألمه وسهره لم تذهب سدى؛ لذلك كان إنكار هذا اليوم والكفر به باعثاً لليأس مظهرًا له، وكان مُكْرِهُ محبباً بنيساً، يجر أذيال الخيبة والحرمان، لا ينتظر جزاءً ولا فرجاً.

ويعزو الشيخ الميداني السبب في كون الإنسان ملحاحاً في الدعاء لنيل خيرات الدنيا، ويؤوساً قنوطاً عند وقوعه في المحن والابتلاءات إلى عدم الإيمان باليوم الآخر، مع كونه مؤمناً بالله تعالى، يقول حبنكة: "وإذا كان يؤمن برب خالق بيده تصريف المقادير... إلا أنه لا يؤمن باليوم الآخر، ولا بما أعد الله فيه من جزاء، أو لا تخطر قضية الإيمان باليوم الآخر على فكره،

¹ انظر: http://www.hayatnafs.com/kadaya_nafsia_ijtema3ia/on-suicide.htm

² سورة العنكبوت، آية 23 .

³ انظر: البيضاوي، أنوار التنزيل، (313/4). أبا السعود، إرشاد العقل السليم، (36/7).

⁴ انظر: البقاعي، نظم الدرر، (549/5).

فإنه كثير الطلب ملحاح في الدعاء لنيل مطالبه، ومحبّه من الحياة الدنيا، فهو لا يسأم من دعاء الخير، والاستزادة من زينة الحياة الدنيا، وإذا مسه شر كان يؤوساً قنوطاً، أو صاحب دعاء عريض مستعرض، بالاعتراض على الله في مقاديره التي لم تنفق مع ما يحب لنفسه من الخير"1، قال تعالى: ﴿لَا يَسْعَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَكُوسُ قَنُوطًا﴾².

ويزداد الكافر اليأساً وخذلاناً عند مواجهته لمصيره المحتوم يوم القيامة، ومعابنته للعذاب الشديد الذي لا مفر ولا ملجأ منه، فلأهوال يوم القيامة، وما يشاهده الإنسان من ميزان وصراط وجنة ونار، وقع عظيم على النفس البشرية، سواء أكانت محسنة أم مسيئة، وقع يخفي وراءه صورة انفعالية من الخوف والفرع والقلق، ويزداد هذا الشعور لدى الكافر الجاحد الذي لم يلامس الإيمان قلبه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾³ لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾³.

يقول سيد قطب: "وهو عذاب دائم، وفي درجة شديدة عصبية، لا يفتر لحظة، ولا يبرد هنيهة، ولا تلوح لهم فيه بارقة من أمل في الخلاص، ولا كوة من رجاء بعيد، فهم فيه يأسون قانطون"4، فإذا وقع هذا العذاب، وعذبوا في نار جهنم، فحينئذ يبلسون⁵.

وقد أجاد الرازي رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ

يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾⁶ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاتٌ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ

¹ الميداني، الأخلاق الإسلامية وأسسها، (402/1)، بتصرف.

² سورة فصلت، آية 49 .

³ سورة الزخرف، الآيتان (74،75).

⁴ قطب، في ظلال القرآن، (3202/5).

⁵ انظر: الزمخشري، الكشاف، (200/3).

كَفْرِينَ ﴿١٣﴾¹، وفي تصوير حال هؤلاء الكفار البائسين؛ حين يلاقون العذاب الأليم؛ لذلك ترى الباحثة أنه من المفيد نقل كلامه كاملاً، يقول رحمه الله: "في ذلك اليوم يتبين إفلاسهم، ويتحقق إفلاسهم، والإفلاس يأس مع حيرة، يعني يوم تقوم الساعة يكون للمجرم يأس محير، لا يأس هو إحدى راحتين؛ وهذا لأن الطمع إذا انقطع باليأس، فإذا كان المرجو أمراً غير ضروري، يستريح الطامع من الانتظار، وإن كان ضرورياً بالإبقاء له، فبدونه ينفطر فؤاده أشد انفطار، ومثل هذا اليأس هو الإفلاس"².

"ولنبين حال المجرم وإفلاسه بمثال، وهو أن نقول: مثله مثل من يكون في بستان وحواليه الملاعب والملاهي، ولديه ما يفتخر به ويباهي، فيخبره صادق بمجيء عدو لا يردده راداً، ولا يصده صاداً، إذا جاءه لا يبلغه ريقاً، ولا يترك له إلى الخلاص طريقاً، فيتحتم عليه الاشتغال بسلوك طريق الخلاص، فيقول له طفل أو مجنون: إن هذه الشجرة التي أنت تحتها لها من الخواص دفع الأعداء عن كون تحتها، فيقبل ذلك الغافل على استيفائه ملاذه، معتمداً على الشجرة بقول ذلك الصبي، فيجيبه العدو ويحيط به، فأول ما يريه من الأهوال قلع تلك الشجرة فيبقى متحيراً أيضاً مفنقراً، فكذلك المجرم في دار الدنيا أقبل على استيفاء اللذات وأخبره النبي الصادق بأن الله يجزيه، ويأتيه عذاب يخزيه، فقال له الشيطان والنفوس الأمارة بالسوء: إن هذه الأخشاب التي هي الأوثان دافعة عنك كل بأس، وشافعة لك عند خمود الحواس، فاشتغل بما هو فيه واستمر على غيه، حتى إذا جاءت الطامة الكبرى، فأول ما أرته إلقاء الأصنام في النار فلا يجد إلى الخلاص من طريق، ويحق عليه عذاب الحريق، فييأس حينئذٍ أي إياس، ويبلس أشد إبلاس"³.

¹ سورة الروم، الآيتان (12، 13).

² الرازي، مفاتيح الغيب، (89/25-90).

³ الرازي، مفاتيح الغيب، (89/25-90).

وبعد محاورات عديدة ومناجاة يائسة، يقول الله لهم: ﴿ أَحْسَعُوا فِيهَا وَلَا تَكَلِّمُونَ ﴾¹،

وعند سماع هذه الكلمة؛ ييأسون من كل خير، ويدعون على أنفسهم بالويل والثبور².

وعندما يتأكد يأسهم من النجاة والمغفرة، يطلبون من خازن النار إهلاكهم والقضاء عليهم: ﴿ وَنَادَوْا يَمَلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِثُونَ ﴾³، "إنها صيحة متناوذة من بعد سحيق، من هناك من وراء الأبواب الموصدة في الجحيم، إنها صيحة أولئك المجرمين الظالمين، إنهم لا يصيحون في طلب النجاة ولا في طلب الغوث، فهم مبلسون يئسون... وإن هذا النداء ليلقي ظلاً كثيفاً للكرب والضيق، وإننا لنكاد نرى من وراء صرخة الاستغاثة نفوساً أطار صوابها العذاب، وأجساماً تجاوز الألم بها حد الطاقة، فانبعثت منها تلك الصيحة المريرة"⁴.

ولا شك في أن هؤلاء المجرمين واجهوا ما لا طاقة لهم به من العذاب، حتى وصلوا إلى هذه الحالة الميؤوس منها، وإلى هذا الوضع المتردي الكئيب.

وأما الذنوب والمعاصي وما أكثرها عند بني البشر؛ فإن من شأنها أن تنقل الإنسان بالهموم والأحزان، وتقعه عن عمل الخير بعد أن تصيبه باليأس والإحباط.

يقول المناوي: "واعلم أن النفس إذا كانت ذات شره وشهوة غالبية فارت بدخان شهواتها كدخان الحريق؛ فأظلمت الصدر فلم يبق له ضوء بمنزلة قمر ينكسف، فصار الصدر مظلماً، وجاءت النفس بهواجسها وتخليطها واضطربت، فظن العبد أن الله لا يعطف عليه ولا يرحمه ولا يكفيه أمر رزقه ونحو ذلك، وهذا من سوء الظن بالله؛ وصل إلى حال اليأس من الرحمة ووقع في القنوط"⁵.

¹ سورة المؤمنون، آية 108.

² انظر: الطبري، جامع البيان، (59/18).

³ سورة الزخرف، آية 77.

⁴ قطب، في ظلال القرآن، (3202/5).

⁵ المناوي، فيض القدير، (78/2).

وقد ذهب محمد نوح إلى أن اليأس الذي يصيب العاملين في طريق الدعوة ناتج عن كثرة المعاصي والسيئات، وتصور أن الله شديد العقاب فقط، وأنه لن يغفر، ولن يعفو، ولن يتجاوز بحال من الأحوال¹.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾²، وأسرفوا على أنفسهم: "أي تجاوزوا الحد في كل فعل مذموم، وقيل: هو ارتكاب الكبائر وغيرها من الفواحش"³.

وورد في سبب نزول هذه الآية: أن ناساً من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وأكثروا، وزنوا وأكثروا، فأتوا محمداً صلى الله عليه وسلم، فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة، فنزلت⁴، وجاء في تفسير الطبري: أن هؤلاء القوم من أهل الشرك قالوا لما دُعوا إلى الإيمان بالله: كيف نؤمن وقد أشركنا وزيننا وقتلنا النفس التي حرم الله، والله أعد لمن يفعل ذلك النار، فما ينفعنا مع ما قد سلف منا؟⁵.

وبعد أن أورد الطبري أقوالاً أخرى في المسألة قال: "وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: عَنَى تعالى ذكره بذلك جميع من أسرف على نفسه من أهل الإيمان والشرك؛ لأن الله عَمَّ بقوله ﴿يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ جميع المسرفين فلم يخص به مسرفاً دون مسرف"⁶، وهذا ما ذهب إليه ابن عادل الدمشقي، وابن عاشور⁷.

¹ انظر: نوح، محمد، آفات على الطريق، دار الوفاء - المنصورة، (ط6/1420هـ-1999م)، (3/125).

² سورة الزمر، آية 53.

³ الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل، (6/80).

⁴ انظر: البخاري، صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ...﴾ الآية (الزمر: 53)، رقم (4532/4/1811).

⁵ انظر: الطبري، جامع البيان، (24/14).

⁶ المرجع السابق، (24/16).

⁷ انظر: ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب، (16/528). ابن عاشور: التحرير والتنوير، (24/41).

وأياً كان المقصود من هذه الآية؛ فإنه قد تراكمت على هؤلاء المسرفين ذنوبهم، وكثرت عيوبهم، وحجبت عنهم رجاء المغفرة من الله عز وجل.

وهذا النداء جاء بعد ما غرق العبد في المعصية، وأسرف في الذنب، وحسب أنه قد طردَ وانتهى أمره، وبدأ يعيش لحظات اليأس والقنوط¹.

وقد ذكر ابن القيم أن من نتائج المعصية: ضيق الصدر، وطول الهمِّ والغم، وضنك المعيشة، وكسف البال، وهذه تتولد عن المعصية والغفلة عن ذكر الله، كما يتولد الزرع عن الماء، والإحراق عن النار²، فنتائج المعصية بمجملها تقود إلى اليأس والقنوط من رحمة الله، إلا إذا تاب العبد إلى رشده، وتاب إلى خالقه، وآب إليه، فعندها يبذل الله سيئاته حسنات، ويرزقه الطمأنينة وراحة البال.

وهكذا فإن من كان قلبه عامراً بالإيمان، موصولاً بذِي الرحمة والغفران؛ فإنه أبعد ما يكون عن اليأس والخذلان، ومن كان قلبه خالياً من أي عمل يرضي به رب الأرض والسموات؛ فليس أسهل من أن يُكَبَّلَ هذا القلب بقيود اليأس والحرمان.

المطلب الثاني: الابتلاءات والمحن

الابتلاءاتُ والمحنُ محطاتٌ صعبةٌ في مسار الحياة، ومسارُ الحياةِ يمتدُّ من الميلاد إلى الوفاة.

ومن الطبيعي أن العطاءَ والمنعَ في الحياة، مسألتان تُقبَلان بقلب الإنسان وفكره وروحه على مولاه، أو تُدبِران بكل ذلك عن صراطه.

¹ انظر: قطب، في ظلال القرآن، (5/3058).

² انظر: ابن القيم، أبا عبد الله، محمد بن أبي بكر (أيوب) الزرعي، (751هـ)، الفوائد، دار الكتب العلمية - بيروت، (ط2/1393هـ/1973م)، (ص: 32-33).

والإقبال والإدبارُ مسألةٌ نسبيةٌ، تحددها مساحة الإيمان واليقين والتوكل، وكل ذلك يختلف من مؤمن إلى آخر، ومن إنسان إلى آخر، وبين الإيمان والكفر تتردد الروح رضاً ورفضاً، وقبولاً ويأساً.

ومربعات الابتلاء والمحنة التي قد تؤدي إلى اليأس، مذكورة بشكل تفصيلي في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَدَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾¹، "وكل هذا وأمثاله مما يختبر الله به عباده، فمن صبر أثابه، ومن قنط أحلَّ به عقابه"².

وكان الله عز وجل أراد من هذه الآية أن يحذر من مسألة الانجرار خلف المواد المذكورة، واللهاث وراء بريقتها، والذوبان في فتنتها، وكأنها هي المصائد التي تظهر قدرة الإنسان على تجاوزها، أو السقوط فيها.

ف"الجزع في هذه المواطن هو الذي يتقلَّ المصيبة، ويولد منها مصائب، فيضعف معها البلاء، ويعظم الألم، ويطبق اليأس، ويغلق كل باب للأمل والرجاء، أما الذي يلقى أحداث الحياة ومصائبها بالصبر، ويواجهها بالتسليم والرضا، عن يقين وإيمان بأن ما وقع إنما هو بقضاء الله وقدره؛ فإن ذلك يهون عليه من وقع المصائب وإن عظمت، ويمدّه بمعين عظيم من الصبر والاحتمال، ويفتح له باباً واسعاً من الأمل والرجاء فيما هو خير عند الله وأبقى"³.

فالفتنة والصمود أمامها، يحتاجان إلى صبر شديد، ومقاومة هائلة، وعدم انصياع لرغبات النفس وتطلعاتها؛ لذلك كان لمن يجتاز هذه المراحل والعقبات بشارة عظيمة: ﴿الصَّابِرِينَ وَدَشِّرِ﴾⁴، الذين تحصنوا بقول الله سبحانه: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾⁵.

¹ سورة البقرة، آية 155 .

² ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (198/1).

³ الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، (176/1).

⁴ سورة البقرة، آية 155 .

⁵ سورة البقرة، آية 156 .

وإذا كانت شيمة الصبر هي الصفة الأبرز لمن تعاملوا مع الشدائد والابتلاءات، في وقت الضيق والشدّة بالقبول والرضا، وردّ الأمر لله، فإن غيرهم سقطوا في أول الطريق، ولم يصبروا؛ وفعل اليأس فعله في قلوبهم، وذهبت عقولهم أسفاً وطمعاً وحسرة، فقادهم هذا الشعور إلى مشاعر غريبة، ربما يكون من محتواها: الرعب من المجهول، وعدم الركون إلى رب الأرباب، فتقطعت بهم الأسباب.

قال تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَذْقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَيْفُوسٌ كَفُورٌ﴾¹.

"يقول تعالى ذكره: ولئن أذقنا الإنسان منا رخاءً وسعةً في الرزق والعيش فبسطنا عليه من الدنيا، وهي الرحمة التي ذكرها تعالى ذكره في هذا الموضع ثم سلبناه ذلك، فأصابته مصائب أجاحتها، فذهبت به ... يظل قنطاً من رحمة الله آيساً من الخير"².

"إن لفظ الإذاقة والذوق يفيد أقل ما يوجد به الطعم، فكان المراد أن الإنسان بوجدان أقلّ القليل من الخيرات العاجلة يقع في التمرد والطغيان، وبإدراك أقلّ القليل من المحنة والبلية يقع في اليأس والقنوط والكفران؛ فالدنيا في نفسها قليلة، والحاصل منها للإنسان الواحد قليل، والإذاقة من ذلك المقدار خير قليل، ثم إنه في سرعة الزوال يشبه أحلام النائمين وخيالات الموسوسين، ... ومع ذلك فإن الإنسان لا طاقة له بتحملها ولا صبر له على الإتيان بالطريق الحسن معها"³.

وفي موضع آخر، يقول تعالى ذكره: ﴿لَا يَسْعَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَعُوسُ قَنُوطٌ﴾⁴، فهذا الإنسان "إن أحسّ بخير وقدره انتفخ وتعظّم، وإن أحسّ

¹ سورة هود، آية 9 .

² الطبري، جامع البيان، (7/12)، بتصرف.

³ الرازي، مفاتيح الغيب، (153/17) بتصرف.

⁴ سورة فصلت، آية 49 .

ببلاء ومحنة ذُبل، كما قيل في المثل: إن هذا كالقرلي، إن رأى خيراً تدلى، وإن رأى شراً تولى².

وتجدر الإشارة هنا إلى أن قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيُوسِّ قَنُوطٌ﴾³ لا ينافي قوله بعد ذلك: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فُدُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾⁴؛ "لأن الأول في قوم، والثاني في قوم، أو قنوط في البر، ذو دعاء عريض في البحر، أو قنوط بالقلب، ذو دعاء عريض باللسان، أو قنوط من الصنم، ذو دعاء لله تعالى"⁵.

نعم، إنه مما لا شك فيه أن الابتلاءات والمصائب لها تأثيرها القوي على النفس الإنسانية؛ فالخوف نقيضه الأمن، والجوع نقيضه الشبع، والغنى نقيضه نقص الأموال، ونقص الأنفس ضعف وحسرة وحزن، والخصب نقيض نقص الثمرات. والخوف، والجوع، ونقص الأموال والأنفس والثمرات، من منغصات الحياة، ومقدمات الجزع والخوف.

لكن الوضع الطبيعي أن يلجأ الإنسان في مثل هذه الأحوال إلى من بيده الأمر كله؛ من أجل أن يخرج من هذا المأزق، أما إذا كانت العلاقة بين العبد وربّه، تسير في غير الاتجاه الصحيح، وكان العصيان دأب العبد، وكانت العقوبة غضب الرب؛ فإن هذا الأمر لا يلبث أن ينقلب إلى مجموعة من النكسات، والارتباكات في نفس العبد، لا يستطيع معها أن يحسن الظن بمولاه، أو يلجأ إليه عند الشدة؛ فيكون اليأس من رحمته هو المحصلة التي تتغلغل في قلوب العصاة وأرواحهم.

¹ هذا المثل يضرب في الذي يهلع من الشر، ويطمع في الخير، والقرلي: طائر جارح، أبلق ببياض، وسواد هفاف، يتعلق غالباً فيرج نفسه فيختلس السمك بمنقار له طويل، وهو غير محب للإنسان، ولا يزال مرفوعاً في البخار يرى شيئاً من معاشه، فيتدلى لأخذه، ولم ير قط طائراً، ولا واقفاً، بل محدم، وجناحاه في خلفهما لا يعرفان السكون أبداً، بل يخفقان دائماً، [انظر: اللطواطي، أبا إسحاق، برهان الدين، محمد بن إبراهيم، (ت: 718هـ)، مباحج الفكر ومناهج العبر، (بدون ذكر الدار ولا الطبعة ولا سنة النشر)، (ص: 86)].

² الرازي، مفاتيح الغيب، (118/27).

³ سورة فصلت، آية 49 .

⁴ سورة فصلت، آية 51 .

⁵ النسفي، مدارك التنزيل، (94/4-95).

يقول صاحب الظلال تحت قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبَّهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾¹: "وهي كذلك صورة للنفس التي لا ترتبط بخط ثابت تقيس إليه أمرها في جميع الأحوال؛ وميزان دقيق لا يضطرب مع التقلبات، الناس هنا مقصود بهم أولئك الذين لا يرتبطون بذلك الخط، لا يزنون بهذا الميزان، هم يفرحون بالرحمة فرح البطر الذي ينسيهم مصدرها وحكمتها، فيطيرون بها، ويستغرقون فيها، ولا يشكرون المنعم، ولا يستيقظون إلى ما في النعمة من امتحان وابتلاء، حتى إذا شاءت إرادة الله أن تأخذهم بعملهم فتذيقهم حالة سيئة، عموا كذلك عن حكمة الله في الابتلاء بالشدّة، وفقدوا كل رجاء في أن يكشف الله عنهم الغمة؛ وقنطوا من رحمته ويئسوا من فرجه؛ وذلك شأن القلوب المنقطعة عن الله، التي لا تدرك سننه ولا تعرف حكمتها، أولئك الذين لا يعلمون، يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا!"².

وقبول مسألة الابتلاء والمحنة والفتنة والتعامل معها، أو رفضها وعدم استيعابها، تصنعها في النفس مجموعة من العوامل، والمحددات التي ترسم شخصية الإنسان وقناعاته، حتى إن المؤمنين أنفسهم درجات في ذلك، وكلما ازداد منسوب الإيمان في النفس، واشتد تغلغله في جنباتها، كان استيعاب النفس للابتلاء أشد، وتفاعلها معه ينطلق من فهمها على أنها مرحلة التنقية، والتمحيص، ورفع الدرجات.

فهاهم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، يعاتبهم رب العزة سبحانه وتعالى على ما بدرَ منهم من الهلع والجزع، حينما أشيع بينهم أن محمداً صلى الله عليه وسلم قد قُتل، وكان ذلك في معركة أحد، عندما شجَّ رأسُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنزل قول الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ

¹ سورة الروم، آية 36 .

² قطب، في ظلال القرآن، (2771/5).

وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١﴾، أي: إذا مات محمد صلى الله عليه وسلم لانقضاء أجله أو قتله عدوكم ارتددتم عن دينكم، الذي بعث الله محمداً بالدعاء إليه، ورجعتم عنه كفاراً بالله بعد الإيمان به².

وَتَجَاوَزَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ هَذِهِ الْعُقْبَةَ، وَتَغَلَّبُوا عَلَى مَا كَانَ يَنْتَابِهِمْ مِنَ الشُّعُورِ بِالْهَلَعِ وَالضِّيقِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ يَحْمِلُونَ فِي قُلُوبِهِمْ إِيْمَانًا رَاقِيًا، وَيَقِينًا جَازِمًا.

فكم هو رائع أن يرتقي الإنسان بإيمانه حتى يحسب الابتلاء والمحن، منة وهبة من الله يؤتيها من يشاء من عباده، وهذا يعني أن تعامل المؤمن مع فلسفة الابتلاء تسير ضمن عقيدة:

﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ

الْمُؤْمِنُونَ ﴾³، ويسير ضمن التوجيه النبوي: "ما يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ وَلَا أَدَى وَلَا غَمٍّ حَتَّى الشُّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ"⁴.

¹ سورة آل عمران، آية 144 .

² انظر: الطبري، جامع البيان، (110/4).

³ سورة التوبة، آية 51 .

⁴ البخاري، صحيح البخاري، كتاب المرضى، باب: ما جاء في كفارة المرض، رقم(5318)، (2137/5).

المبحث الثاني

جزاء اليائسين

المطلب الأول: استحقاقهم غضب الله تعالى

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِن

الْآخِرَةِ كَمَا يَبِئْسَ الْكُفَّارُ مِنَ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾¹.

لا شك في أن الذين غضب الله عليهم بنص هذه الآية هم من اليهود، ولكن الحكم بالغضب يجري على كل من حمل صفاتهم، وسار على دربهم، وحذا حذوهم. هذا ما يراه البقاعي حيث يقول: "غضب الله: أي أوقع الملك الأعلى الغضب عليهم؛ لإقبالهم على ما أحاط بهم من الخطايا، فهو عام في كل من اتصف بذلك، يتناول اليهود تناولاً أولياً؛ ولما كان السامع لهذا يتوقع بيان سبب الغضب، قال معللاً ومبيناً أنه: لا خير فيهم يرجى، وإن ظهر خلاف ذلك؛... فهم قد باؤوا بغضب من الله، بعد أن يئسوا من الآخرة، ومن أن ينالهم فيها خير، وتجاوزوا الحد في المعاصي والآثام"².

ويظهر من كلام البقاعي: أن غضب الله سبحانه وتعالى الواقع على اليهود ومن حذا حذوهم، كان بسبب يأسهم من رحمة الله تعالى، وتماديهم في المعاصي والآثام، ويمكن القول إلى جانب ما ذكره البقاعي: أن أبرز ما يتصف به اليهود وأشياهم: صفتان ملازمتان لهما؛ الأولى: أن الله عز وجل غضب عليهم، فهم الموصوفون بصريح القرآن الكريم بـ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾³، والثانية: أنهم يائسون من رحمة الله تعالى، وهذا ما يفيد إعراب الآية الكريمة، حيث أن جملة: ﴿غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ الفعلية جاءت في محل نصب صفة أولى لـ ﴿قَوْمًا﴾، وجملة: ﴿يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ الفعلية جاءت في محل نصب صفة ثانية، وترى

¹ سورة الممتحنة، آية 13 .

² البقاعي، نظم الدرر، (568/7)، بتصرف.

³ سورة الفاتحة، آية 7 .

الباحثة أنه لا يوجد تعارض بين القول: بأنَّ غَضَبَ الله تعالى كان بسبب اليأس من رحمته سبحانه، وبين القول: بأنَّ الغَضَبَ من الله تعالى على هؤلاء اليهود، واليأس الحاصل منهم، يشكلان صفتان يحملهما ذلك الصنف من الناس.

وإنَّ القنوط من رحمة الله تعالى يوجب الغضب لا الرضا¹؛ وإذا علم الله سبحانه وتعالى أن في قلب عبد من عباده يأساً وكفراً عند الامتحان بالبلاء، وفرحاً وفخراً عند الابتلاء بالنعماء، وغفلة عن الحمد والثناء على ربِّ الأرض والسماء، صاحب السراء والضراء؛ فإن ذلك من أعظم أسباب خذلانه، وتخليه عنه؛ فإن محله لا تناسبه النعم المطلقة التامة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿١٤﴾﴾²؛ فأخبر سبحانه أن محلهم غير قابل لنعمته، ومع عدم القبول ففيهم مانع آخر يمنع وصولها إليهم؛ وهو توليهم وإعراضهم إذا عرفوها وتحققوها³.

المطلب الثاني: استحقاقهم العذاب الأليم

بعدما حكم الله سبحانه وتعالى على اليائسين من رحمته بالكفر والضلال، وبعد أن باؤوا بغضب من الله، استحقوا العذاب الأليم يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَايَةِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾⁴، "أي أولئك الموصوفون بالكفر بآيات الله تعالى، ولقائه،

¹ انظر: الساعاتي، أحمد عبد الرحمن، (ت: 1378هـ)، بلوغ الأمان من أسرار الفتح الرباني، اعتنى به: حسان عبد المنان، بيت الأفكار الدولية، (بدون ذكر الطبعة ولا سنة النشر)، (ص: 3612).

² سورة الأنفال، الأيتان (22،23).

³ انظر: ابن القيم، الفوائد، (ص: 206).

⁴ سورة العنكبوت، آية 23.

وباليأس من رحمته، الممتازون بذلك عن سائر الكفرة؛ لهم بسبب تلك الأوصاف القبيحة عذاب لا يُقَادَرُ قَدْرُهُ في الشدة والإيلام"¹.

فمن اتصف بالكفر بآيات الله ولقائه، وباليأس من رحمته سبحانه، كان له من العذاب أشدُّه وأوجعُه، هذا ما يظهر من كلام أبي السعود.

ولكن الواضح من الآية الكريمة: أن المهلكة الأولى التي وقع فيها هذا الصنف من الناس هي: الكفر، وهذا يعني: التكذيب بآيات الله ولقائه، لذا كان المترتب على هذا الكفر: اليأس من رحمة الله التي من مظنة حصولها ذلك اللقاء.

إذن أصبح اليأس من رحمة الله تعالى متسبباً عن الكفر بآياته ولقائه، والجزاء المناسب لمن كذب بآيات الله ولقائه، ويئس من رحمته عذاب أليم.

وترى الباحثة: أن هذا المعنى هو المستفاد من الآية الكريمة، ومن ترتيب، وتدرُّج المراحل التي يمر بها هذا الصنف من الناس؛ حيث كان الكفر بآيات الله أولاً، ثم الكفر بلقائه، ثم عوقبوا باليأس والقنوط، فحُرِّموا نعمة الرجاء برحمة الله، وتعنتوا في مواقفهم وقناعاتهم، فلاقوا الله يوم القيامة كفاراً مشركين، فاستحقوا بذلك العذاب الأليم.

"ثم إن في الآية الكريمة فوائد: إحداهما: قوله: ﴿أُولَئِكَ يَسُوءُ﴾؛ حتى يكون منبئاً عن حصر الناس فيهم، وقال أيضاً: ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ لذلك، ولو قال: أولئك الذين كفروا بآيات الله ولقائه يسُوءوا من رحمتي ولهم عذاب أليم، ما كان يحصل هذه الفائدة، فإن قال قائل: لو اكتفي بقوله ﴿أُولَئِكَ﴾ مرة واحدة كان يكفي في إفادة ما دُكر، ثم قلنا: لا؛ وذلك لأنه لو قال: أولئك يسُوءوا ولهم عذاب، كان يذهب وهمُّ أحد إلى أن هذا المجموع منحصر فيهم،

¹ أبو السعود، إرشاد العقل السليم، (36/7).

فلا يوجد المجموع إلا فيهم، ولكن واحداً منهما وحده يمكن أن يوجد في غيرهم، فإذا قال: أولئك يؤسوا وأولئك لهم عذاب، أفاد أن كل واحد لا يوجد إلا فيهم...¹.

ونقل السمعاني، والزمخشري، وابن عطية عن قتادة² قوله عند هذه الآية: "ذمَّ الله أقواما هانوا عليه، فقال: ﴿أُولَئِكَ يَبْسُؤُا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي: موجع مؤلم"³.

وعن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- أنه قال: "النجاة في اثنتين، والهلكة في اثنتين، النجاة في النية، والنهي⁴، والهلكة في القنوط والإعجاب"⁵.

المطلب الثالث: معاقبتهم بنهي المؤمنين عن موالاتهم

الحصارُ والتضييقُ والحجْرُ صُورٌ مؤلِّمةٌ شديدةُ الأثرِ على من يعاقب بمثل هذه العقوبات.

فإنَّ ما يترتب على من يحاصر، ويضيقُّ عليه، ويحجر على التعامل معه، أمور في غاية الخطورة والشدة.

فمن تضيق الدائرة الاجتماعية، وقطع ما بينه وبين الناس، إلى قلة الناصر، إلى وقف الامتداد والتوسع فيما حوله من الدوائر الاقتصادية، إلى إشعاره بالغرابة والعزلة، إلى خوفه ممن حوله، حيث لا يمكن له ضبط أو معرفة مشاعر الآخر وتفكيره تجاهه، إلى غير ذلك من صور الإرباك والتوتير.

¹ الرازي، مفاتيح الغيب، (45/25)، بتصرف.

² هو قتادة بن دعامة بن قنادة، أبو الخطاب السدوسي البصري، المفسر، (ت: 118هـ)، قال أحمد بن حنبل: قتادة عالم بالتفسير وباختلاط العلماء، ووصفه بالحفظ والفق، [انظر: الذهبي، أبا عبد الله، محمد شمس الدين، (ت: 748هـ)، تذكرة الحفاظ، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، (122/1-123)].

³ انظر: السمعاني، تفسير القرآن، (175/4)، الزمخشري، الكشاف، (454/3)، ابن عطية، المحرر الوجيز، (312/4).

⁴ النهي: العقل، واحدها: نهي بالضم، سميت بذلك؛ لأنها تنهى صاحبها عن القبيح، [انظر: ابن سيده، المحكم، (385/4)].

⁵ وكيع، أبو سفيان، ابن الجراح بن مليح بن عدي الرواسي، (ت: 197هـ)، الزهد، (بدون ذكر الدار ولا الطبعة ولا سنة النشر)، (398/1).

والنهي عن الموالاة لصنف من الناس تشتمل على كل المعاني السابقة؛ حيث أن الموالاة هي: رباط يوفر الأمن النفسي، والاقتصادي، والاجتماعي لمن بينهم هذا الرباط، وقطعه يؤدي بصورة تلقائية إلى إلغاء هذه الروابط.

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾¹.

وقد بين الله سبحانه وتعالى سبب التنفير منهم في هذه الآية، وهو أنهم يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور²، ومعنى الآية: كيف توالون اليهود والنصارى، وسائر الكفار ممن غضب الله عليهم، ولعنهم، واستحقوا من الله الطرد والإبعاد، وتتخذونهم أصدقاء، وأحلاء، وقد يئسوا من الآخرة، أي: ثواب الآخرة، ونعيمها في حكم الله عز وجل³.

فأي عقوبة أشد على النفس من هذه العقوبة؛ حيث تُفرض على مجموعة من الناس فتُعتبر الدائرة الأصغر، والأضيق، في بحر متلاطم من الأمم؟!!

¹ سورة الممتحنة، آية 13 .

² انظر: الشنقيطي، أضواء البيان، (1/413).

³ انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (357/4).

الفصل الرابع

سبل الوقاية والعلاج من اليأس

المبحث الأول: الإيمان الصادق المتمثل بالصبر والعمل الصالح

المبحث الثاني: المحافظة على الصلوات في أوقاتها

المبحث الثالث: التوكل على الله مع الأخذ بالأسباب

المبحث الرابع: التمسك بالرجاء والأمل المحمود

المبحث الخامس: الإيمان بالقضاء والقدر

المبحث السادس: حسن الظن بالله سبحانه وتعالى

المبحث السابع: الإكثار من الذكر والدعاء

المبحث الثامن: الاستجابة لأمر الله تعالى بالانتهاة عن اليأس والقنوط

المبحث التاسع: الإيمان بسعة رحمة الله تعالى

تمهيد

اليأس نتيجة صعبة، وثمرَةٌ نَكِدَةٌ من ثمار الكفر المحض، والمعاصي بكافة أشكالها وصورها، وكذلك هو خَلْفٌ مرٌّ؛ لعدم القدرة على التعامل مع البلاء والابتلاء.

فالكافر بربه، المتمرد على النصوص، المخالف لشرع الله، المستكبر على الصراط المستقيم يمتلك أقوى مقومات اليأس والقنوط والإحباط. وكذلك العاصي الذي لا يتضح عنده معنى الوقوف بين يدي ربه، والذي يغفل عن لحظة الحساب والثواب والعقاب يفقد كذلك أقوى ركائز الرجاء، والأمل برحمة الله وتجاوزه.

والذي يَضَعُ عند الابتلاء، ولا يُحسِن التعامل مع هذه السنة الربانية في التمهيص وتثبيت الإيمان، ولا يستقبل إرادة الله عز وجل بالصورة الراضية المرضية، يتمرد في داخله الشرُّ والكبر؛ فتصاب عزيمته بالإعياء والنحول والوهن؛ فيَقْدَفُ اليأسُ في قلبه، ويفقد التوازن أمام النائبات.

لذلك لا بدَّ من وقاية وعلاج حتى يجتاز الناس هذه المرحلة. لا بدَّ من وقاية مسبقة تعتبر أهم ركائزها مقومات إيمانية، وصلة بالله، وقضاء بقدره، وعبادة صادقة مبنية على العبودية الحقَّة التي تفتح قلب المسلم وذهنه، وتهيئ روحه لقبول كل ما يختاره الله له، ويُقدِّره عليه، ولو أردتُ أن أفصِّل بعضاً مما أقول، لوضعت هذه المباحث التسعة على النحو الآتي:

المبحث الأول

الإيمان الصادق المتمثل بالصبر والعمل الصالح

الإيمان بالله تعالى كان وما زال وسيبقى الجدار الصلب، والحصن المتين في مواجهة الظروف القاسية؛ من همّ وكرب وضيق، وسيبقى الرافد العذب الذي يمد النفس الإنسانية بسبول من الأمن والطمأنينة والسعادة.

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْتَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١﴾.

يقول سيد قطب: "فأما المؤمنون الموصولة قلوبهم بالله، النديّة أرواحهم بروحه، الشعارون بنفحاته المحيية الرخية، فإنهم لا يبيأسون من روح الله ولو أحاط بهم الكرب، واشتد بهم الضيق، وإن المؤمن لفي روح من ظلال إيمانه، وفي أنس من صلته بربه، وفي طمأنينة من ثقته بمولاه، وهو في مضايق ومخانق الكروب"².

لذلك؛ فقد شكل الصحابة رضوان الله عليهم، جيلاً متماسكاً قوياً متفائلاً، لا تؤثر فيه الخطوب، ولا تؤيسه الهموم والأحزان، بالرغم من كثرتها وشدتها؛ فولد إيمانهم القوي بالله، واعتصامهم به جل في علاه، الشعور لديهم بالأمن والأمان والطمأنينة والرجاء، فكانوا خير أمة أخرجت للناس.

وما أبعد حال المسلمين اليوم عما كان عليه الصحب الكرام والتابعين وتابعيهم؛ فإن أقل الابتلاءات والمحن، تهز قلوبهم، وتهبط بنفوسهم -إلا من رحم ربي - فبسبب بعدهم عن مولاهم، وخالقهم؛ كان اليأس قريبيهم وحليفهم.

¹ سورة النحل، آية 97 .

² قطب، في ظلال القرآن، (2026/4).

ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِيَنَّكَ مِنَ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾¹، دليل على

أنه بحسب إيمان العبد يكون رجاؤه لرحمة الله وروحه²؛ "فالمؤمن حقاً لا تقطه المصائب، ولا الشدائد، من رحمة الله، وتفريجه لكربه"³، وصدق رسول صلى الله عليه وسلم حينما قال: "عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ"⁴.

يقول الغزالي: "فمن عرف الله لم يتصور أن يكون آمناً، ولا أن يكون آيساً"⁵، وآمناً:

يعني يأمن بمكر الله.

ويعظم الأمل، والرجاء في نفس المؤمن إذا كان إيمانه مقترناً بالصبر، والعمل الصالح، "والصبر، والعمل الصالح كذلك لا ينفعان إلا مع هداية وإيمان"⁶، فبعد أن بين الله سبحانه وتعالى حال الإنسان الكافر، عند مروره بظروف مختلفة من نعماء وضرراء، وما يصدر منه من يأس وفرح وفخر، استثنى الله سبحانه وتعالى من هذا الصنف، الذين صبروا، وعملوا الصالحات، قال تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَفُورٌ ﴿١٠﴾ وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَّتَهُ لِيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ﴿١١﴾ إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾⁷.

¹ سورة يوسف، آية 87 .

² انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن، (ص:404).

³ المراغي، تفسير المراغي، (30/13).

⁴ مسلم، صحيح مسلم، كتاب: الزهد والرقائق، باب: المؤمن أمره كله خير، رقم(2999)،(2295/4).

⁵ الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد، (ت:505هـ-)، إحياء علوم الدين، دار المعرفة - بيروت، (بدون ذكر الطبعة ولا سنة النشر)، (20/4).

⁶ ابن عطية، المحرر الوجيز، (154/3).

⁷ سورة هود، الآيات: (9-11).

فقد استثنى الله جل ثناؤه من الإنسان، من وصف بهاتين الصفتين: الصبر، والعمل الصالح؛ فإنهم إن تأتته شدة من الدنيا وعسرة فيها لم يثتم ذلك عن طاعة الله، ولكنهم يصبرون لأمره وقضائه، وإن نالوا فيها رخاء وسعة، شكروه وأدوا حقوقه بما آتاهم منها¹.

يقول الألوسي: "لما تضمن اليأس عدم الصبر، والكفران عدم الشكر، كان المستثنى من ذلك ضده ممن اتصف بالصبر، والشكر فلما قيل: (إلا الذين ... الخ)، كان بمنزلة: إلا الذين صبروا وشكروا، وذلك من صفات المؤمن؛ فكفي بهما عنه"².

وما ذلك إلا لأن "الإيمان الجاد المتمثل بالعمل الصالح، هو الذي يعصم النفس البشرية من اليأس الكافر في الشدة، كما يعصمها من البطر الفاجر في الرخاء، وهو الذي يُقِيمُ القلب البشري على سواء في البأساء والنعماء، ويربطه بالله في حاله، فلا يتهافت تحت مطارق البأساء، ولا يَتَنَفَّجُ³ ويتعالى عندما تغمره النعماء، وكلا حالي المؤمن خير، وليس ذلك إلا للمؤمن، كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم"⁴.

"فالمؤمن إذا ابتلي بمرض أو فقر، أو نحوه من الأعراض التي كل أحد عرضة لها، فإنه بإيمانه، وبما عنده من القناعة، والرضا بما قسم الله له، يكون قرير العين، لا يتطلب بقلبه أمراً لم يقدر له، ينظر إلى من هو دونه، ولا ينظر إلى من هو فوقه، وربما زادت بهجته وسروره وراحته على من هو متحصل على جميع المطالب الدنيوية، إذا لم يؤت القناعة...، وإذا حدثت أسباب الخوف، وألمت بالإنسان المزعجات، تجد صحيح الإيمان ثابت القلب، مطمئن النفس، متمكناً من تدبيره وتسييره لهذا الأمر الذي دهمه، بما في وسعه من فكر وقول وعمل، قد وَطَّنَ نفسه لهذا المزعج الملم، وهذه أحوال تريح الإنسان وتثبت فؤاده"⁵.

¹ انظر: الطبري، جامع البيان، (8/12).

² الألوسي، روح المعاني، (16/12).

³ نَفَجَ وَانْتَفَجَ وَتَنَفَّجَ، يطلق على كل ما ارتفع، ورجل نَفَّجَ: إذا كان صاحباً فَخْرٍ وَكِبْرٍ، [انظر: ابن منظور، لسان العرب، (382/381/2)].

⁴ قطب، في ظلال القرآن، (1860/4).

⁵ السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، الوسائل المفيدة للحياة السعيدة، مؤسسة النور، الرياض، طبعة سنة (1378هـ)، (ص:7)، بتصريف.

وبعد، فإن الإيمان الصادق المتمثل بالصبر، والعمل الصالح كفيلاً بأن يصلح بال المسلمين، ويفرج كربهم وأحزانهم، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾¹، "فقله تعالى: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾، إشارة إلى ما يثيب على الإيمان، وقوله: ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾، إشارة إلى ما يثيب على العمل الصالح"².

"وإصلاح البال، نعمة كبرى تلي نعمة الإيمان في القدر والقيمة والأثر، والتعبير يلقي ظلال الطمأنينة والراحة والثقة والرضا والسلام، ومتى صلح البال، استقام الشعور والتفكير، واطمأن القلب والضمير، وارتاحت المشاعر والأعصاب، ورضيت النفس، واستمتعت بالأمن والسلام، وماذا بعد هذا من نعمة أو متاع؟ ألا إنه الأفق المشرق الوضيء الرفاف"³.

وللصبر دوره المتميز في إضفاء جو من الرضا، والسعادة، والطمأنينة، على قلب الإنسان، وروحه، يقول الدكتور جمال ماضي: "ونرى الإسلام يحضُّ على الصبر، حتى يشعر المسلم الذي يجتاز العقبات بالطمأنينة، وتحقيق الذات، والتغلب على الإحساس بالاكنتاب، إذا تمسك بهذه الأخلاقيات؛ تقوى الإرادة، ويزداد الشعور بالأمل والتفاؤل"⁴.

¹ سورة محمد (صلى الله عليه وسلم)، آية 2 .

² الرازي، مفاتيح الغيب، (34/28).

³ قطب، في ظلال القرآن، (3281/6).

⁴ ماضي، جمال أبو العزائم، القرآن والصحة النفسية، (تأملات في الآيات القرآنية المتعلقة بالصحة النفسية)، (1ط/1414هـ/1994م)، (ص:93).

المبحث الثاني

المحافظة على الصلوات في أوقاتها

كان الحديث في المبحث السابق عن الإيمان المتمثل بالصبر والعمل الصالح، وسيلة من وسائل علاج اليأس، والصلاة جزء من الإيمان، ولكن القرآن الكريم خصّها بالذكر؛ لما لها من الأثر العلاجي المثمر والفعال؛ ففيها صلاح المجتمع، وبها يستتير البشر، وتسد الإنسانية.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۝ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ۝ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ۝ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ۝ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنْ آتَبَعِي وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَسَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ تَحَافِظُونَ ۝ ۱ .

وقد بدأ الله أولئك المستثنين وختمهم بالصلاة، ففي الآية الثانية والعشرين ورد قوله تعالى: ﴿ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴾، وفي الآية الرابعة والثلاثين ورد قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ تَحَافِظُونَ ﴾، مما يفيد أن الصلاة أصل لكل خير، ومبدأ لهذا المذكور كله؛ لقوله تعالى: ﴿ وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾²؛ فهي عون على كل خير³.

¹ سورة المعارج، الآيات، (19-34).

² سورة البقرة، آية 45.

³ انظر: الشنقيطي، أضواء البيان، (269/8).

ف"الاستعانة بالصلاة... أقرب إلى حصول المأمول، وإرجاع النفس إلى الله تعالى؛ لما لها من التأثير في الروح"¹. "وكفى بالصلاة بركة في دلالتها على النجاة من هذا الوصف الموجب لأسباب النار"².

لذلك فقد أمر الله سبحانه وتعالى، نبيه الكريم بالصلاة والابتهاال؛ لكي يحصل الفرج، وتتم النعمة، قال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾﴾³، وهذا هو التوجيه الكريم لمواقع التيسير، وأسباب الانشراح، ومستودع الري، والزاد في الطريق الشاق الطويل"⁴.

وهذا التوجيه الرباني يظهر واضحاً في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعَلْمُ أَنْكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٤﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّجِدِينَ ﴿٥﴾ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٦﴾﴾⁵، "وفي أمره صلى الله عليه وسلم بما ذكر، إرشاد له إلى ما يكشف به الغم الذي يجده، كأنه قيل: افعل ذلك، يكشف عنك ربك الغم، والضيق الذي تجده في صدرك، ولمزيد الاعتناء بأمر الصلاة؛ جيء بالأمر بها كما ترى مغايراً للأمر السابق على هذا الوجه المخصوص؛ وفي ذلك من الترغيب فيها ما لا يخفى"⁶.

وقد طبَّق الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الأمر، وامتثل له، فكان صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر « اشتدَّ عليه » فزع إلى الصلاة⁷، وتلا هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾⁸

¹ رضا، محمد رشيد، (ت: 1354هـ)، تفسير القرآن الحكيم، الموسوم بـ(تفسير المنار)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، طبعة سنة (1990م)، (1/250).

² البقاعي، نظم الدرر، (8/151).

³ سورة الشرح، الأيتان (7،8).

⁴ قطب، في ظلال القرآن، (6/3930).

⁵ سورة الحجر، الآيات، (97-99).

⁶ الألوسي، روح المعاني، (14/87).

⁷ انظر: أبا داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، سنن أبي داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر - بيروت، (بدون ذكر الطبعة ولا سنة النشر)، كتاب الصلاة، باب: وقت قيام النبي صلى الله عليه وسلم من الليل، رقم (1319)، (2/35)، ونص الحديث: (كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر صلى)، قال الألباني: حسن، الألباني، محمد ناصر الدين، (ت: 1420هـ)، الجامع الصغير وزيادته، المكتب الإسلامي - بيروت، رقم (8832)، (ص: 884).

⁸ سورة البقرة، آية 153 .

ولا غرابة في ذلك، فالصلاة وما فيها من حركات متناسقة؛ من ركوع، وسجود، وقيام، لها دور من ناحية نفسية في إزالة التوتر والقلق، يقول الدكتور جمال ماضي: "إن الوضوء يساعد جسمانياً على التغلب على أعراض التوتر؛ لذلك فإنه مهم قبل كل صلاة، كما أن الصلاة نفسها تؤدي إلى الراحة، وهدوء النفس، ولا شك أن الصلاة الجماعية في المسجد، والروح الجماعية التي تسود بين المسلمين، تساعد على التغلب على الشعور بالوحدة، وهو الشعور الذي يؤدي إلى الإحباط، والاكنتاب"¹.

وقد وَجَدَ النبي صلى الله عليه وسلم، وصحابته الكرام حلاوة هذا الشعور الناتج عن الصلاة؛ لذلك فقد كان يقول عليه الصلاة والسلام لبلال: "يا بلال: أقم الصلاة، أرخنا بها"²، وفي حديث آخر، قال عليه الصلاة والسلام: "حُبِّبَ إلي النساء، والطيب، وجُعِلَتْ قُرَّةُ عيني في الصلاة"³.

فمن وجد في نفسه ضيقاً، وانقباضاً، فليهرع إلى الصلاة، ومن شعر بشيء من الإحباط واليأس، فليسارع إلى الوقوف بين يدي الله عز وجل، وليناجي ربه، بإخلاص، وانكسار، وسجد علاجاً ناجعاً، وسريعاً لما ينتابه من شعور سيئ.

كيف لا، والصلاة صلة بين العبد وربّه، وأصل لكل خير، ومنبع لكل سعادة، ومطهرة للذنوب والمعاصي التي تحول بين العبد وبين الشعور بالأمل والرجاء، قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾⁴.

¹ ماضي، جمال أبو العزائم، القرآن والصحة النفسية، (ص:93).

² أبو داود، سنن أبي داود، كتابا الأدب، باب في صلاة العتمة، رقم(4985)، (296/4)، قال الألباني: صحيح، الألباني، الجامع الصغير وزيادته، رقم(13851)، (1386).

³ النسائي، أبو عبد الرحمن، أحمد بن شعيب، سنن النسائي(المجتبى)، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب، (ط2/1406هـ-1986م)، كتاب عشرة النساء، باب حب النساء، رقم(3940)، (61/7)، وهو حديث غريب من حديث جعفر عنه، تفرد به سيار بن خالد عنه، انظر: ابن القيسراني، أبا الفضل محمد بن طاهر، (ت:507هـ)، أطراف الغرائب والأفراد من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم للإمام الدارقطني، تحقيق: محمود حسن نصار، والسيد يوسف، دار الكتب العلمية - بيروت، (ط1/1419هـ-1998م)، (23/2)، وقال الألباني: صحيح، الألباني، الجامع الصغير وزيادته، رقم(5409)، (ص:541).

⁴ سورة العنكبوت، آية 45 .

المبحث الثالث

التوكل على الله مع الأخذ بالأسباب

لما كان مفادُ التوكل: سكون القلب إلى كفاية الله عزَّ وجلَّ، وتفويض الأمور إليه سبحانه، والاعتماد عليه؛ لعلمه وقدرته¹؛ فقد شكل الالتزام به وتطبيقه والتمثل به، الملاذَّ الآمن والحصن الحصين، أمام كل المخاوف والهموم والهزات التي تهدد حياة الإنسان المسلم، وتَحُدُّ من سعادته، فـ"من توكل على الله في كل المهمات، كفاه الله تعالى كل الملمات، لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾^{3:2}.

يقول ابن عطية في تفسير هذه الآية: "فإن توكلت كفاك، وتعجلت الراحة والبركة، وإن لم تتوكل، وكلك إلى عجزك وتسخطك"⁴.

فالمؤمن المتوكل على الله تعالى، لا يقع بين أمواج الحيرة والاضطراب، ولا يجيب داعي اليأس؛ وذلك لأنه إذا همَّ أن يبئس من نفسه؛ بتقطع الأسباب، وتغليق الأبواب، وتغلب الأعداء، يتذكر أن الله تعالى وليه ووكيله، وأنه هو الذي بيده ملكوت كل شيء، وأنه هو الذي يُجير، ولا يُجار عليه، فتتجدد قوته، ويفرُّ منه اليأس، ويتجدد عنه ما اخلولق⁵ من البأس، فينصره الله تعالى بما يستفيد من الإيمان والذكرى والتوكل، وما يخذل به عدوه، ويلقي في قلبه من الرعب، وبغير ذلك من ضروب عنايته عز وجل، التي رآها كل متوكل من المؤمنين الكاملة، مع سيد المتوكلين، محمد صلى الله عليه وسلم، أيام ضعفهم وقلنتهم وفقدهم، وتآلب الناس كلهم عليهم⁶.

¹ انظر: الجزائري، أبا بكر، جابر، عقيدة المؤمن، دار المنار، (بدون ذكر الطبعة ولا سنة النشر) (ص:90)، بتصرف.

² سورة الطلاق، آية 3 .

³ الرازي، مفاتيح الغيب، (17،117).

⁴ ابن عطية، المحرر الوجيز، (324/5).

⁵ اخلولق تعني: بلي ولان واستوى، واخلولق السحاب: استوى وارتقت جوانبه، وصار خليقاً للمطر، كأنه ملس تلميساً، [انظر: ابن منظور، لسان العرب، (10/88-90)].

⁶ انظر: رضا، محمد رشيد، تفسير المنار، (230/6).

ولكي يؤتي هذا الخلق ثماره على النفس المؤمنة، يجب أن يكون مقترناً بالأخذ
بالأسباب، وبالمقابل، فإنه لا يؤخذ بالأسباب بعيداً عن التوكل على الله.

ذلك لأن "الإنسان إذا توكل، ولم يستعد للأمر، ويأخذ له أهبتة، بحسب سنة الله في
الأسباب والمسببات، يقع في الحسرة والندم، عندما يخيب، ويفوته غرضه، فيكون ملوماً شرعاً
وعقلاً... وإذا هو استعد، وأخذ بالأسباب واعتمد عليها غافلاً قلبه عن الله تعالى؛ فإنه يكون
عرضة للجزع والهلع، إذا خاب سعيه، ولم ينل مراده... وربما وقع في اليأس الذي لا مطمع
معه في فلاح ولا نجاح"¹.

فها هو سيدنا يعقوب عليه السلام، يلجأ إلى الله سبحانه وتعالى، ويفوض أمره إليه،
بعدما فقد اثنين من أبنائه، وأصابه من الحزن ما أذهب بصره، قال تعالى حكاية عنه: ﴿ قَالَ
إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾²، وفي الوقت نفسه،
يدعو أبنائه إلى البحث عن سيدنا يوسف وأخيه، وعدم اليأس من رحمة الله، قال تعالى حكاية
عنه: ﴿ يَبْنِي أَدْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾³، "أي: احرصوا واجتهدوا على
التفتيش عنهما، ﴿ وَلَا تَأْيَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ ﴾، فإن الرجاء يوجب للعبد السعي والاجتهاد، فيما
رجاه، والإيأس يوجب له التناقل والتباطؤ، وأولى ما رجا العباد، فضل الله وإحسانه ورحمته
وروحه"⁴.

وكما يقول الشاعر⁵:

لا تقعدن بكسر البيت مكتئباً يفنى زمانك بين اليأس والأمل

¹ رضا، محمد رشيد، تفسير المنار (170/4).

² سورة يوسف، آية 86 .

³ سورة يوسف، آية 87 .

⁴ السعدي، تيسير الكريم المنان، (ص:404).

⁵ هذه الأبيات من شعر الحكم بن أبي الصلت، انظر: ابن أبي الصلت، الحكم، ديوان الحكم بن أبي الصلت، (بدون ذكر
الدار ولا الطبعة ولا سنة النشر)، (ص:192).

واحتمل لنفسك في شيء تعيش به فإن أكثر عيش الناس بالحيل

ولا تقل إن رزقي سوف يدركني وإن قعدت فليس الرزق كالأجل

وقد ذكر أبو بكر الجزائري أن من ثمار التوكل: الشجاعة، واطمئنان النفس، والصبر، والتحمل، مع مضاء العزيمة، وهذا مما تهدي إليه الآية الكريمة في سورة يونس: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَنْقُومِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بِعَايَتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾^{1،2}.

وفي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدِ جَمَعُوا لَكُمْ فَآخَاشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾³ فأنقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوءٌ واتبعوا رضوان الله⁴ والله ذو فضلٍ عظيمٍ⁵، دلالة واضحة على أن الله سبحانه وتعالى تكفل بالكفاية التامة لمن توكل عليه حق التوكل، وتعهد بمنحه النعمة والطمأنينة والسعادة.

¹ سورة يونس، آية 71 .

² انظر: الجزائري، أبا بكر، جابر بن موسى، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة، ط5/1424هـ/2003م)، (494/2).

³ سورة آل عمران، الآيتان، (173،174).

المبحث الرابع

التمسك بالرجاء والأمل المحمود

إنه من الطبيعي، ولكي يقف الإنسان في وجه اليأس، ويقاومه؛ أن يُحَفِّزَ نفسه، ويُعَوِّدَهَا على التفاؤل، وتأمل المغفرة، والرحمة من الله تعالى، ولكن لا يوصله ذلك إلى القعود، وعدم المبالاة، وبالتالي الأمن من مكر الله؛ لأن الإنسان المسلم يجب أن يعيش بين الخوف والرجاء، ويوازن بينهما، فلا يُغَلِّب جانب الخوف بحيث يوصله إلى اليأس والقنوط من رحمة الله، ولا يُغَلِّب جانب الرجاء بحيث يوصله إلى الأمن من مكر الله، وهذا ما أمرنا الله سبحانه وتعالى به، حيث قال: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾¹، "أي ذوي خوف نظراً إلى قصور أعمالكم، وعدم استحقاقكم، وطمع نظراً إلى سعة رحمته، ووفور فضله وإحسانه"².

ومن آيات الرجاء قوله تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾³.

يقول الشوكاني: "واعلم أن هذه الآية أرجى آية في كتاب الله سبحانه؛ لاشتمالها على أعظم بشارة؛ فإنه أولاً: أضاف العباد إلى نفسه؛ لقصده تشریفهم ومزيد تبشيرهم، ثم وصفهم بالإسراف في المعاصي، والاستكثار من الذنوب، ثم عقَّب ذلك بالنهي عن القنوط من الرحمة لهؤلاء المستكثرين من الذنوب، فالنهي عن القنوط للمذنبين غير المسرفين من باب الأولى، وبفحوى الخطاب، ثم جاء بما لا يبقى بعده شك، ولا يتخالج القلب عند سماعه ظن فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾، فالألف واللام قد صيرت الجمع الذي دخلت عليه للجنس الذي يستلزم استغراق أفراده فهو في قوة: إن الله يغفر كل ذنب كائنا ما كان، إلا ما أخرجه النص

¹ سورة الأعراف، آية 56 .

² أبو السعود، إرشاد العقل السليم، (233/3).

³ سورة الزمر، آية 53 .

القرآني وهو الشرك: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾¹، ثم لم يكتف بما أخبر عباده به من مغفرة كل ذنب؛ بل أكد ذلك بقوله: ﴿جَمِيعًا﴾، فبالها من بشارة ترتاح لها قلوب المؤمنين المحسنين ظنهم بربهم، الصادقين في رجائه، الخالعين لثياب القنوط، الراضين لسوء الظن بمن لا يتعاضمه ذنب، ولا يبخل بمغفرته، ورحمته على عباده، المتوجهين إليه في طلب العفو، الملتجئين به في مغفرة ذنوبهم، وما أحسن ما علل سبحانه به هذا الكلام قائلًا: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، أي: كثير المغفرة والرحمة، عظيمهما، بليغهما، واسعهما².

والنهي عن القنوط نقيضه الأمر بالرجاء، ففي هذه الآية دعوة للعصاة المسرفين، المبعدين في تيه الضلال، إلى لأمل والرجاء، والثقة بعفو الله، فإله سبحانه وتعالى يعلم ضعفهم وعجزهم، ويعلم أن الشيطان يقعد لهم كل مرصد، وأنه قد ركبت في كيانهم ميول وشهوات سرعان ما تحرف بهم عن التوازن، وتوقعهم في المعصية³.

فالرجاء هو العلاج الشافي، والمخلص المثالي مما يعانيه الإنسان من يأس وأوهام، وأحزان، يقول ابن قدامة: "اعلم أن دواء الرجاء يحتاج إليه رجلان: إما رجل قد غلب عليه اليأس حتى ترك العبادة، وإما رجل غلب عليه الخوف حتى أضرب نفسه وأهله"⁴.

"والإسلام يشجع المسلمين على التفاؤل، ويرغبهم به؛ لأنه عنصر نفسي طيب، وهو من ثمرات قوة الإرادة، ومن فوائده: أنه يشدذ الهمم إلى العمل، ويغذي القلب بالطمأنينة والأمل؛... لذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الفأل، ويكره التشاؤم؛ فالتفاؤل من الوجوه الباسمة المشرقة، والتشاؤم من الوجوه الكالحة الفاتمة"⁵.

¹ سورة النساء، آية 48.

² الشوكاني، فتح القدير، (470/4).

³ انظر: قطب، في ظلال القرآن، (3058/5).

⁴ ابن قدامة، أحمد بن عبد الرحمن المقدسي، (ت: 682هـ)، مختصر منهاج القاصدين، خرَّج أحاديثه وعلق عليه: عبد الله الليثي الأنصاري، دار الفكر - بيروت، طبعة سنة (1408هـ/1987م)، (ص: 285).

⁵ الميداني، الأخلاق الإسلامية، (163/2)، بتصرف.

يقول الطغرائي في لاميته المشهورة:

أعلل النفس بالآمال أرقبها ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل¹

وفي أسلوب القرآن الكريم ما يرفع مستويات الأمل والرجاء لدى الإنسان المؤمن، ويبعث فيه روح التفاؤل، ويقوي فيه العزيمة، مثلاً في قوله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝﴾²، قدم الضحى - وهو ساعة من النهار - على الليل كله؛ حتى لا يحصل اليأس من روحه، ثم عقبه بالليل؛ حتى لا يحصل الأمن من مكره³.

وعندما يُتلى على مسامع الإنسان قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ﴾⁴، يقع في نفسه أنه خارج إطار هذه المنحة، وهذا الاصطفاء؛ لأنه يعدُّ نفسه من الذين أسرفوا على أنفسهم بالمعاصي والذنوب، ولكنه عندما يسمع تنمة الآية، يفرح ويستبشر، ويزول ما كان يعتقد، ويظنه: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ۖ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ۖ إِذْنِ اللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ۖ﴾⁵.

يقول البقاعي: "ولما كان أكثر الناس لا ينفك عن تقصير كثير؛ لما جبل الإنسان عليه من النقصان، فكان من فيه ذلك، يخرج نفسه من هذا القسم، قال معرفاً به بمقداره، مؤنساً له بما فتح له من أنواره، مستجلباً له إلى حضرة قدسه، ومعدن أسرارته، مقسماً أهل هذا القسم - وهم

¹ الطغرائي، أبو إسماعيل، الحسين بن علي، (ت: 513هـ)، ديوان الطغرائي، مطبعة الجوائب - القسطنطينية، (ط1/1300هـ)، (ص: 55).

² سورة الضحى، الآيتان (2،1).

³ انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، (31/189-190).

⁴ سورة فاطر، آية 32 .

⁵ سورة فاطر، آية 32 .

أهل الفهم - إلى ثلاثة أقسام، مقدماً الأدنى؛ لأنهم الأكثر، ولئلا يحصل اليأس، ويصدع القلوب خوف اليأس"¹.

وفي قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿١﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٢﴾﴾، تأكيد للوعد، وتعظيم للرجاء، وهذا ما أفاده التكرار³، فبعد أن ذكّر الله سبحانه وتعالى النبي صلى الله عليه وسلم بما أنعم عليه من جلائل النعم، مثل انشراح الصدر ورفع الذكر، قال عز من قائل: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿١﴾﴾، كأنه قال: خولناك ما خولناك فلا تيأس من فضل الله، فإن مع العسر الذي أنتم فيه يسراً⁴.

فالتمسك بالرجاء أمر محمود، ندب إليه الإسلام، وحبب فيه، يقول التستري: "أفضل الخدمة وأعلاها، انتظار الفرج من الله تعالى"⁵.

فمهما طال ليل الشدة، وتعاضم زمن البلاء، واشتد الأمر على الإنسان، فإنه لا بد من يوم تطلع فيه شمس الفرج، وينقشع فيه ضباب اليأس، يقول علي رضي الله عنه:

إذا اشتملت على اليأس القلوب	وضاق لما به الصدر الرحيب
وأوطنت المكاره واستقرت	وأرست في أماكنها الخطوب
ولم تر لانكشاف الضر وجهاً	ولا أغنى بحيلته الأريب
أتاك على قنوط منك غوث	يمن به اللطيف المستجيب
وكل الحادثات إذا تناهت	فموصول بها فرج قريب ⁶

¹ البقاعي، نظم الدرر، (225/6).

² سورة الشرح، الآيتان، (6،5).

³ انظر: البغوي، معالم التنزيل، (502/4).

⁴ انظر: الزمخشري، الكشاف، (776/4).

⁵ التستري، أبو محمد، سهل بن عبد الله، تفسير التستري، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية - بيروت، (ط1423/هـ)، (ص:83).

⁶ علي بن أبي طالب، ديوان علي، جمع وترتيب: عبد العزيز الكرم، (ط1409/هـ-1988م)، (ص:12).

المبحث الخامس

الإيمان بالقضاء والقدر

إن للإيمان بالقضاء والقدر، والرضا به، نتائجها الإيجابية على الإنسان المسلم؛ فهو أصل سعادة الإنسان، ومنبع راحته؛ ذلك لأن الإنسان إذا ما تأمل في مدلولات هذه العقيدة، واستشعر معناها، وتعمق في فهمها وتطبيقها، لن تضربه -بإذن الله- الابتلاءات والمحن، ولن ينتابه الهم والقلق، ولن يخسر راحة البال، وطمأنينة النفس؛ لأنه يعلم أن ما حصل كان بعلم الله، وتقديره، وأن ما سيحصل هو أيضاً مقدر ومكتوب عند الله تعالى، فيعيش قريح العين، مطمئن البال، يحدوه الأمل والرجاء.

وقد ذكر الجزائري أن من ثمرات الرضا بالقضاء، ومن نتائجها السارة: "أنه يكسب صاحبه قوة الشكيمة، ومضاء العزيمة؛ إذ من اطمأنت نفسه إلى أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، خلت جميع أعماله من الحيرة، والتردد، وانتفى من حياته القلق، والاضطراب؛ لأنه بمجرد ما يترجح لديه الإقدام على أمر ما، قدم عليه في غير ما خوف، ولا رهبة، ولا تردد، ومن هنا فإنه لا يحزن على ماضٍ، ولا يغتم لحاضر، ولا يؤلمه هم المستقبل، وبذلك يكون أسعد الناس حالاً، وأطيبهم نفساً، وأصلحهم بالاً"¹.

وكيف يتمكن اليأس من قلب مؤمن موحد بالله، وهو يطالع قول الله عز وجل: ﴿لَمَّا

أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٣٣﴾ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٣٤﴾²، "وقيمة هذه الحقيقة في النفس البشرية، أن تسكب فيها السكون، والطمأنينة عند استقبال الأحداث خيرها وشرها، فلا تجزع الجزع الذي تطير به

¹ الجزائري، عقيدة المؤمن، (ص: 348).

² سورة الحديد، الآيتان، (22، 23).

شعاعاً، وتذهب معه حسرات عند الضراء، ولا تفرح الفرح الذي تستطار به، وتفقد الاتزان عند السراء"¹.

فإذا علم الإنسان أن كل شيء مقدر مكتوب عند الله تعالى، قل أساه على الفائت، وفرحه على الآتي، والمقصود بالأسى هنا: الحزن الذي يخرج صاحبه عن الصبر، والتسليم لأمر الله، ورجاء ثواب الصابرين، أما الحزن الذي لا يكاد الإنسان يخلو منه، مع الاستسلام، والسرور بنعمة الله والاعتداد بها مع الشكر، فلا بأس به².

"ومما لا شك فيه أن هذه الصفات قد تجلّت واضحة في هذه الأمة، أمة الإسلام، أيام كانت عقيدة القضاء والقدر، واضحة في نفوسهم، قوية في قلوبهم، فقد فاقوا الناس شجاعة وكرماً، وصبراً وحلماً، ومعرفة وعلماً؛ الأمر الذي تمكنوا به من سيادة العالم، وقيادته مدة من الزمن، طويلة غير قصيرة"³.

وقد طمأن الله سبحانه وتعالى الناس على رزقهم، وقوت يومهم، وأنه مقدر ومحفوظ في السماء، قال تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾⁴، وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَدْقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾⁵، وبعد أن وصف الله سبحانه وتعالى الناس بالفرح، والبطر عند حصول النعمة لهم، وبالقنوط واليأس عند حصول النقمة، "نبههم إلى ما يطرد اليأس، والقنوط، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾⁶، أي ألم يعلموا، ويشاهدوا، أن الله يوسع الرزق لمن يشاء من عباده امتحاناً، بغض النظر عن وجود صفة الكفر، ويضيق

¹ قطب، في ظلال القرآن، (3493/6)، بتصريف.

² انظر: الزمخشري، الكشاف، (477/4).

³ الجزائري، عقيدة المؤمن، (ص: 348).

⁴ سورة الذاريات، آية 22 .

⁵ سورة الروم، آية 36 .

⁶ سورة الروم، آية 37 .

الرزق على من يشاء ابتلاءً، ولو مع وجود الإيمان وصالح الأعمال، فالله هو المتصرف الفاعل للأمرين بحكمته وعدله، يُوسِّعُ على قوم، ويضيقُ على آخرين، دون نظر إلى صفتي الإيمان والكفر؛ لأن الدنيا لا تساوي عند الله جناح بعوضة، والمؤمن هو الراضي بقضاء الله وقدره، ولا ييأس من رحمة الله، فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون¹.

"فقد ذكر تعالى -في هذه الآية- الأمر الذي من اعتبره، لم ييأس من روح الله على حال، وهو أن الله تعالى يخصُّ من يشاء من عباده ببسط الرزق، ويقدر على من شاء منهم، فينبغي لكل عبد أن يكون راجياً ما عند ربه"².

وبعد، فإن الإيمان بالقضاء والقدر، متى فهم على الوجه الصحيح، وتعمقت جذوره في النفس الإنسانية، فإنه يلقي بظلال عقيدة راسخة راقية، وهي أن ما أصاب الإنسان من نعماء أو ضراء، لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه من هذه الأمور، لم يكن ليصيبه، فيمضي في حياته مطمئن النفس، مرتاح البال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم موجهاً حديثه لابن عباس: "يا غلام: إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت الله فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، وأعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقاليم وجفت الصحف"³.

¹ الزحيلي، وهبة بن مصطفى، التفسير المنير، دار الفكر - بيروت، طبعة سنة (1418هـ)، (21:90).

² ابن عطية، المحرر الوجيز، (338/4)، بتصرف.

³ الترمذي، أبو عيسى، محمد بن عيسى السلمي، (ت:279هـ)، سنن الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرين، دار إحياء التراث العربي - بيروت، (بدون ذكر الطبعة ولا سنة النشر)، كتاب: صفة القيامة والرفائق والسورع، باب(59)، رقم(2516)، (667/4)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

المبحث السادس

حسن الظن بالله سبحانه وتعالى

الجزاء من جنس العمل؛ فكما أن الإنسان الذي وقع في نفسه، أن الله شديد العقاب فقط، وأنه لن يغفر له، ولن يسامحه، يكون مصيره من جنس ظنه، ويتحقق ما كان يعتقد، ويصر عليه، فإن الإنسان الذي ظن أن الله سبحانه وتعالى سيرحمه، ويغفر له، سيختصر على نفسه طريقاً شاقاً محاطاً بأشواك اليأس والقنوط، وسيحظى برضا الله، ورحمته، وبسعادة لا حد لها بإذن الله تعالى.

يقول الله سبحانه في الحديث القدسي: "أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسي، ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ، ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب إلي شبراً، تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إلي ذراعاً، تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي، أتيته هرولة"¹، وقد رجح النووي أن يكون المراد من حسن الظن بالله في هذا الحديث هو: الرجاء، وتأميل العفو².

ففي حسن الظن بالله، علاج لكل هم وضيق، ويأس، وراحة للروح، والقلب، والنفس، فمن حسن ظنه بالله، عاش متفائلاً، مقبلاً على فعل الخير، ومن ساء ظنه بالله، عاش متشائماً مدبراً عن كل خير، "وقد قيل: قتل القنوط صاحبه، وفي حسن الظن بالله راحة القلوب"³.

وما ذلك إلا لأن "القلب المؤمن، حسن الظن بربه، يتوقع منه الخير دائماً، يتوقع منه الخير في السراء والضراء، ويؤمن بأن الله يريد به الخير في الحالين، وسر ذلك أن قلبه موصول بالله"⁴.

¹ البخاري، صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ وَقَوْلِهِ جَلَّ ذِكْرُهُ ﴿

تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾، رقم (6970)، (2694/6).

² النووي، صحيح مسلم بشرح النووي، (2/17).

³ الماوردي، أبو الحسن، علي بن محمد، (ت: 450هـ)، أدب الدنيا والدين، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الإيمان - المنصورة، (بدون ذكر الطبعة ولا سنة النشر)، (ص: 227).

⁴ قطب، في ظلال القرآن، (3319/6).

وقد ضرب لنا سيدنا يعقوب عليه السلام، أروع مثال في حسن الظن بالله، وعدم اليأس من روحه جل في علاه، وذلك في محنته التي مر بها، وهي فقدته لاثنتين من أبنائه، وهي محنة شديدة، جديرة بأن توقع صاحبها في وحل اليأس والقنوط -إلا من عصم ربي - قال تعالى حكاية عنه: ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۗ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۗ 1.

وها هو زكريا عليه السلام، يدعو ربه سبحانه وتعالى دعاء المحسن ظنه بالله، في جو حرج يطل عليه اليأس فيه من كل باب، فلا يمنعه كبر سنه، وكون امرأته عاقراً، من التعلق بحبال الأمل، والرجاء، ومن الدعاء والاستغاثة برب الأرباب، يقول الله سبحانه وتعالى حكاية عنه: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيحاً ۗ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً ۗ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ عَالِ يَعْقُوبَ ۗ وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيحاً ۗ 2، ففي قوله: ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيحاً ۗ، يتجلى حسن ظنه بالله تعالى، "أي لم أكن بدعائي إياك خائباً في وقت من أوقات هذا العمر الطويل، بل كلما دعوتك استجبت لي" 3.

"وكلما كان العبد حسن الظن بالله، حسن الرجاء له، صادق التوكل عليه؛ فإن الله لا يخيب أمله فيه البتة، فإنه سبحانه لا يخيب أمل آمل، ولا يضيع عمل عامل" 4.

¹ سورة يوسف، آية 83 .

² سورة مريم، الآيات (4-6).

³ الألوسي، روح المعاني، (60/16).

⁴ انظر: ابن القيم، أبا عبد الله، محمد بن أبي بكر (أبوب) الزرعي، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي - بيروت، (ط2/1393هـ-1973م)، (1/469-471).

المبحث السابع

الإكثار من الدعاء وذكر الله

قال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ

رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾¹، يقول الشيخ المراغي: "ودعاء المولى حين الشعور بالعجز، والافتقار إليه، مما يقوّي الأمل بالإجابة، ويحول بينها وبين اليأس إذا تقطعت الأسباب، وجهلت وسائل النجاح"²، ولو لم يكن للدعاء فائدة إلا هذا لكفى، فكيف وهو مخ العبادة، ولبابها، وإجابته مرجوة بعد استكمال شروطه، وآدابه، وأولها: عدم الاعتداء فيه، فإن لم تكن بإعطاء الداعي ما طلبه، كانت بما يعلم الله أنه خير له منه"³.

وقد تكفل الله سبحانه وتعالى، بإجابة دعوة المضطر، والملهوف، وتحقيق مبتغاه، قال تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَأَلَيْسَ لَهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾⁴، "فالمضطر في لحظات الكربة، والضيق، لا يجد له ملجأ إلا الله، يدعوه؛ ليكشف عنه الضر، والسوء، ذلك حين تضيق الحلقة، وتشتد الخنقة، وتتخاذل القوى،... وينظر الإنسان حواليه، فيجد نفسه مجرداً من وسائل النصر، وأسباب الخلاص، لا قوته، ولا قوة في الأرض تنجده،... في هذه اللحظة تستيقظ الفطرة، فتلجأ إلى القوة الوحيدة التي تملك الغوث والنجدة، ويتجه الإنسان إلى الله، ولو كان قد نسيه من قبل في ساعات الرخاء، فهو الذي يجيب المضطر إذا دعاه،... يجيبه ويكشف عنه السوء، ويرده إلى الأمن والسلامة، وينجيه من الضيقة الآخذة بالخناق"⁵.

¹ سورة الأعراف، آية 56 .

² المراغي، تفسير المراغي، (179/8).

³ رضا، محمد رشيد، تفسير المنار، (410/8).

⁴ سورة النمل، آية 62 .

⁵ قطب، في ظلال القرآن، (2658/5)، بتصريف.

حتى إن الله سبحانه وتعالى حين يجيب المضطر والمكروب يبدأ بكشف السوء، وإزالة الهم والغم، ثم يُثني بجلب المنافع والمساّر، وهذا من فضل الله سبحانه على عباده، ومن رحمته بهم، يقول البقاعي: "ولما كانت الإجابة ذات شقين، جلب السرور، ودفع الشرور، وكان النظر إلى الثاني أشد، خصه بادئاً به فقال: ﴿ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾"¹.

والدعاء بحد ذاته، واللجوء إلى الله سبحانه وتعالى، واستشعار القرب منه جل في علاه، دون النظر إلى تحقيق الإجابة، مريح للقلب، مطمئن للنفس، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾²، ففي هذه الآية ما فيها من الارتقاء بالنفس المؤمنة، وطمأننتها، وإيراحتها من كل هم، وغم، وضيق.

وقد علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، حديثاً يزيل الهم والحزن، قال عليه الصلاة والسلام: "ما أصاب أحداً قط، همٌّ، ولا حزنٌ فقال: اللهم إني عبدك بن عبدك بن أمّتك ناصيتي بيدك، ماضٍ في حكمك، عدلٌ في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو علمته أحداً من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهب همي، إلا أذهب الله همه وحزنه وأبدله مكانه فرجاً"³.

ومن دعاء النبي صلى الله عليه وسلم المأثور: "اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل والجبن والبخل وضلع الدين وغلبة الرجال"⁴.

¹ البقاعي، نظم الدرر، (439/5).

² سورة البقرة، آية 186 .

³ ابن حنبل، أحمد، (ت: 241هـ)، مسند الإمام أحمد بن حنبل، مؤسسة قرطبة - مصر، (بدون ذكر الطبعة ولا سنة النشر)، رقم (3712)، (391/1)، قال الألباني في السلسلة الصحيحة: رواه أحمد وهو صحيح، الألباني، محمد ناصر الدين، السلسلة الصحيحة، مكتبة المعارف - الرياض، (بدون ذكر الطبعة ولا سنة النشر)، (383/1).

⁴ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب الاستعاذة من الجبن والكسل، رقم (6008)، (2342/5).

ويعرضُ القرآن الكريم لنا صورة نفسية حرجة، وجواً مشحوناً بالكدر، والضيق، واليأس، لهؤلاء نفر الثلاثة¹ الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، فعاشوا مرحلة قاسية مؤلمة، كان المخرج الوحيد منها هو الالتجاء إلى الله سبحانه وتعالى، والتمسك بحماه، قال تعالى: ﴿وَعَلَىٰ أَلْتَلْتَلْتَةِ الَّذِينَ خُلْفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِّنْ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾².

فقد ضاقت على هؤلاء الأرض بسعتها، غماً، وندماً، على تخلفهم عن الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وضاقت عليهم أنفسهم بما نالهم من الوجد والكرب بذلك³، " فكأنما هي وعاء لهم تضيق بهم، ولا تسعهم، وتضغطهم، فتكرب أنفاسهم"⁴، وفي الآية دلالة على أن الهم والغم ملاً لأنفسهم، بحيث لا يسعها أنس، ولا سرور⁵.

يقول سيد قطب تحت قوله تعالى: ﴿وَزَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِّنْ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾: "ولكن ذكرُ هذه الحقيقة هنا في هذا الجو المكروب، يخلع على المشهد ظلاً من الكربة، واليأس، والضيق، لا مخرج منه؛ إلا بالالتجاء إلى الله مفرج الكرب"⁶.

ولقد نجى الله سبحانه وتعالى نبيه يونس عليه السلام، من الشدة التي وقع بها، وخلصه من بطن الحوت، بعد أن توجه سيدنا يونس بالدعاء والابتهال للمولى عز وجل، وقال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾

¹ هؤلاء هم: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، وهم الذين نزل فيهم قول الله تعالى: ﴿وَأَخْرُوجُوا مَرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، التوبة، آية 106، [انظر: الواحدي، أبا الحسن، علي بن أحمد بن محمد، (ت: 468هـ)، أسباب النزول، تحقيق: كمال بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية - بيروت، (ط1/1411هـ-1991م) (ص: 175)].

² سورة التوبة، آية 118.

³ انظر: الطبري، جامع البيان، (56/11).

⁴ قطب، في ظلال القرآن، (3/1732).

⁵ انظر: أبا حيان، البحر المحيط، (5/112).

⁶ قطب، في ظلال القرآن، (3/1732).

إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١﴾، ومن ثم تكفل الله سبحانه وتعالى بإنجاء المؤمنين السائرين على هذا الدرب، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُحْيِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾، يقول السعدي: "وهذا وعد وبشارة، لكل مؤمن وقع في شدة وغم، أن الله تعالى سينجيه منها، ويكشف عنه ويخفف؛ لإيمانه، كما فعل بـ(يونس) عليه السلام" ³.

وأما الذكر، فإن له شأن عظيم، وأهمية كبيرة، ودور مميز في إزالة آثار الهم، والضيق، واليأس، التي تعتري النفس الإنسانية، فقد أعطى الله سبحانه وتعالى لرسوله الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، الدواء الشافي الذي يمسح عن صدره الضيق، وهو التسييح بحمد الله، وكثرة الصلاة، والسجود له سبحانه، والقيام بعبادة الرب، مع الاستمرار في ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرَكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٤٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٤٨﴾ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٤٩﴾﴾ ^{4، 5}.

وقال له في موضع آخر: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿٦﴾، "أي: اذكر الله في هذه الأوقات، طمعاً، ورجاءً أن تنال عند الله، ما به ترضي نفسك، ويُسر قلبك" ⁷.

¹ سورة الأنبياء، آية 87 .

² سورة الأنبياء، آية 88 .

³ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، (ص:530).

⁴ سورة الحجر، الآيات، (97-99).

⁵ انظر: الميداني، الأخلاق الإسلامية، (483/1).

⁶ سورة طه، آية 130 .

⁷ الزمخشري، الكشاف، (97/3).

ف"التسبيح بالله اتصال، والنفس التي تتصل، تطمئن وترضى، ترضى وهي في ذلك الجوار الرضي، وتطمئن وهي في ذلك الحمى الآمن، والرضا ثمرة التسبيح والعبادة، وهو وحده جزاء حاضر، ينبت من داخل النفس، ويترعرع في حنايا القلب"¹.

وبالمقابل، فإن من كان في غفلة عن الله، وإعراض عن ذكره سبحانه؛ فإنه سيجازى بضنك العيش، والحيرة، والقلق، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾²، والضنك أصله: الضيق، والشدة، وهذا الضيق المتوقع به، إما أن يكون في الدنيا، أو في القبر، أو في الآخرة، أو في الدين، أو في كل ذلك أو أكثره³.

"وقد قال بعض الصوفية: لا يُعرض أحد عن ذكر الله، إلا أظلم عليه وقته، وتكدر عليه عيشه"⁴.

ومن الآيات الدالة على أن ذكر الله يورث السعادة، والرضا، وطمأنينة النفس، قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾⁵، "أي ألا بذكر الله وحده تطمئن قلوب المؤمنين، ويزول القلق، والاضطراب من خشيته؛ بما يفرضه عليها من نور الإيمان، الذي يذهب الهلع والوحشة، وهي بمعنى قوله في الآية الأخرى: ﴿ثُمَّ تَلِيْنُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾⁶ 716.

¹ قطب، في ظلال القرآن، (2357/4).

² سورة طه، آية 124 .

³ الرازي، مفاتيح الغيب، (112/22).

⁴ الكلبي، التسهيل لعلوم التنزيل، (20/3).

⁵ سورة الرعد، آية 28 .

⁶ سورة الزمر، آية 23 .

⁷ المراغي، تفسير المراغي، (100/13).

المبحث الثامن

الاستجابة لأمر الله تعالى بالانتهاة عن اليأس والقنوط

لقد كان من منهج القرآن الكريم في علاج اليأس، النهي عن فعله، والتحذير من الوقوع فيه، وكان ذلك في أكثر من آية في القرآن الكريم، والإنسان المسلم بدوره يستجيب لهذا الأمر الإلهي؛ لكي يتسنى له التغلب على الشعور باليأس، ومحو شروره التي تحيط به، ومن هذه الآيات ما جاء فيها النهي عن اليأس والقنوط مباشرة صريحاً، ومنها ما جاء فيها النهي بصورة غير مباشرة، ولكن المعنى المأخوذ من هذه الآيات كان واضحاً جلياً.

ومن الآيات التي كان النهي عن اليأس فيها صريحاً، قوله تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾¹، "أي: لا تيأسوا منها، فتلقوا بأيديكم إلى التهلكة، وتقولوا قد كثرت ذنوبنا، وترأمت عيوبنا، فليس لها طريق يزيلها، ولا سبيل يصرفها، فتبقون بسبب ذلك مصرين على العصيان، متزودين بما يغضب عليكم الرحمن"².

ومنها قوله تعالى على لسان سيدنا يعقوب: ﴿يَبْنَئِ أَدْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوَسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأَيْسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأَيْسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾³.

وقد نهى الله سبحانه وتعالى سيدنا إبراهيم عليه السلام عن اليأس والقنوط، في قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئُهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾⁴ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٦﴾ قَالُوا لَا تَوَجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٧﴾ قَالَ أَبَشْرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِي الْكِبْرُ فِيمَ تَبَشِّرُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا بَشْرَتِكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَنِطِينَ ﴿٥٩﴾⁴

¹ سورة الزمر، آية 53 .

² السعدي، تيسير الكريم الرحمن، (ص:727).

³ سورة يوسف، آية 87 .

⁴ سورة الحجر، الآيات، (51-55).

وهذا النهي لا يعني أن سيدنا إبراهيم كان قانطاً، بدليل أنه صرح في جوابهم بما يدل على أنه ليس كذلك، فقال: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾^{1، 2}، ولكن في هذا النهي درس، وتوجيه للمسلمين عامة لكي لا يقنطوا من رحمة الله، مهما اشتد بهم البلاء، وكثر الحرمان.

وجاء النهي بصورة غير مباشرة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾³، فالإلقاء إلى التهلكة هو القنوط من رحمة الله، هذا ما قاله: محمد بن سيرين⁴، وعبيدة السلماني⁵، وقال أبو قلابة⁶: هو الرجل يصيب الذنب، فيقول: قد هلكت ليس لي توبة، فيئأس من رحمة الله، وينهمك في المعاصي، فنهاهم الله تعالى عن ذلك⁷، وما هذا إلا "لأن الآيس من رحمة الله لذنب سلف منه، ملق بيديه إلى التهلكة"⁸.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾⁹، أي: محسنون بربكم الظن، كما قال الفضيل^{10، 11}.

¹ سورة الحجر، آية 55 .

² انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، (156/19).

³ سورة البقرة، آية 195 .

⁴ هو أبو بكر، محمد بن سيرين البصري، (ت:110هـ)، كان أبوه عبداً لأنس بن مالك رضي الله عنه، وهو أحد الفقهاء من أهل البصرة، والمذكور بالورع في وقته، [انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، (181/4-182)].

⁵ هو عبيدة بن عمرو السلماني، المرادي، الكوفي، الفقيه، (ت:72هـ)، كاد أن يكون صحابياً، أسلم زمن فتح مكة باليمن، وأخذ عن علي، وابن مسعود، قال الشعبي: كان يوازي شريحاً في القضاء، [انظر: الذهبي، تذكرة الحفاظ، (50/1)].

⁶ هو عبد الله بن زيد بن عمرو الجرمي، (ت:104هـ)، عالم بالقضاء والأحكام، ناسك، من أهل البصرة، أرادوه على القضاء. فهرب إلى الشام، فمات فيها، وكان من رجال الحديث الثقات، [الزركلي، الأعلام، (88/4)].

⁷ انظر: البغوي، معالم التنزيل، (165/1).

⁸ الطبري، جامع البيان، (205/2).

⁹ سورة آل عمران، آية 102 .

¹⁰ هو الإمام القدوة شيخ الإسلام، أبو علي التميمي، اليربوعي، المروزي، شيخ الحرم، (ت:187هـ)، كان ثقة كبير الشأن، كثير الحديث، روى عنه الشافعي، وخلق كثير، [انظر: الذهبي، تذكرة الحفاظ، (245/1-246)].

¹¹ الثعالبي، الجواهر الحسان، (281/1).

وهذه وصية إبراهيم عليه السلام لأبنائه، قال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾¹، "ويتضمن هذا النهي، إرشاد من كان منحرفاً عن الإسلام إلى عدم اليأس، وأن يبادر بالرجوع إليه والاعتصام بحبله؛ لئلا يموت على غيره"².

"وعن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، قبل موته بثلاثة أيام يقول: لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل"³، "أي: لا يموتن أحدكم في حال من الأحوال، إلا في هذه الحالة، وهي حسن الظن بالله تعالى، بأن يظن أنه يرحمه، ويعفو عنه؛ لأنه إذا حضر أجله، وأتت رحلته، لم يبق لخوفه معنى؛ بل يؤدي إلى القنوط، وهو تضيق لمجاري الرحمة، والإفضال، ومن ثم كان من الكبائر القلبية، فحسن الظن، وعظم الرجاء، أحسن ما تزوده المؤمن لقدمه على ربه"⁴، "قال العلماء: هذا تحذير من القنوط، وحث على الرجاء عند الخاتمة"⁵.

وفي قوله تعالى ذكره: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾⁶، "تعزية لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ على ما أصابهم من الجراح، والقتل بأحد، ودعوة لهم إلى عدم اليأس والجزع، فقد أخرج الطبري عن الزهري قوله: "كثراً في أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم القتل والجراح، حتى خلص إلى كل امرئ منهم اليأس؛ فأنزل الله عز وجل القرآن فآسى فيه المؤمنين بأحسن ما آسى به قوما من المسلمين كانوا قبلهم

¹ سورة البقرة، آية 132 .

² رضا، محمد رشيد، تفسير المنار، (391/1).

³ مسلم، صحيح مسلم، كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت، رقم (2877)، (4:2206).

⁴ المناوي، فيض القدير، (455/6).

⁵ النميسي، محمد عبد الحميد، وذلك في تحقيقه لكلام المقرئ، تقي الدين، أحمد بن علي، (ت: 845هـ)، إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، دار الكتب العلمية - بيروت، (ط1/1420هـ/1999م)، (495/14).

⁶ سورة آل عمران، آية 139 .

من الأمم الماضية، فقال: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزِنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾¹، إلى قوله: ﴿لَبَّرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾².

وقد نهى الله سبحانه وتعالى سيدنا نوح عليه السلام، عن اليأس والحزن، على صنيع قومه، وعدائهم، قال تعالى: ﴿وَأَوْحِي إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾⁴، أي: "لا تيأس ولا تحزن"⁵.

وبعد، فإن في أسلوب القرآن الكريم هذا - وهو أسلوب النهي عن اليأس - رادع فعال، ووسيلة ناجعة، للحد من الوقوع في اليأس، وإن في استجابة المؤمن لهذا الأسلوب، وهذه الوسيلة، خير دواء، وخير علاج لأعراض مرض اليأس، وشروره.

¹ سورة آل عمران، آية 139 .

² سورة آل عمران، آية 154 .

³ الطبري، جامع البيان، (102/4).

⁴ سورة هود، آية 36 .

⁵ الصنعاني، تفسير القرآن، (304/2).

المبحث التاسع

الإيمان بسعة رحمة الله تعالى

إن من فضل الله تعالى على عباده، ورحمته بهم، أن جعل باب التوبة مفتوحاً للمذنبين والعصاة، وحتى الكفار، إذا هم ندموا على ما فرطوا في جنب الله، وشعروا بالتقصير والحاجة للإنابة، والرجوع إلى الله، والناظر في القرآن الكريم، يجد الكثير من الآيات التي تبين سعة رحمة الله تعالى، وعظيم فضله وكرمه، ويدخل في إطار سعة رحمة الله تعالى، الآيات التي اقترنت فيها المغفرة مع العقوبة، أو الرحمة مع العقوبة، فالمذنب الذي أسرف على نفسه، عندما يطالع مثل هذه الآيات، ويؤمن بسعة رحمة تعالى؛ فإنه ينفذ عن نفسه غبار اليأس، ويفتح لها أبواباً من الأمل والرجاء.

ومن الآيات الدالة على سعة رحمة الله، والتي تبعث الأمل في نفوس العباد، وتُبعد اليأس عنهم، قول المولى عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾¹، "فجاء الاعتراض بين المعطوف، والمعطوف عليه، وهو: ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾، تصويماً للتائبين، وتطيباً لقلوبهم، وبشارة لهم؛ بوصف ذاته بسعة الرحمة، وقرب المغفرة، وإجلالاً لهم، وإعلاءً لقدرهم؛ بأنهم علموا أن لا مفرح للمذنبين إلا فضله وكرمه، وأن من كرمه: التائب من الذنب عنده كمن لا ذنب له، وأن العبد إذا التجأ إليه في الاعتذار والتصل بأقصى ما يقدر عليه، عفا عنه، وتجاوز عن الذنوب - وإن جلت - فإن عفوهُ أجلُّ، وكرمه أعظم، وتحريضاً للعباد على التوبة، وبعثاً عليها وعلى الرجاء، وردعاً عن اليأس والقنوط"²،

¹ سورة آل عمران، آية 135 .

² حقي، إسماعيل بن مصطفى، (ت: 1127هـ)، تفسير روح البيان، دار إحياء التراث العربي - بيروت، (بدون ذكر الطبعة ولا سنة النشر)، (78/2)، بتصرف.

و"في ضمن معنى الاستغراق: قلع اليأس والقنوط؛ ولهذا علل سبحانه النهي في قوله تعالى:
﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾¹، بقوله جل شأنه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾^{3١٢}.

وقد "فتح الله باب الأمل، ومنع اليأس بقوله جل في علاه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾⁴

أي: إن رحمة الله وسعت كل شيء، ومغفرته تسع الذنوب كلها لمن تاب منها، كما قال تعالى:
﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ
الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾^{6١٥}، وفي هذا "ما يدفع اليأس عن صاحب الكبيرة
في غفران ذنبه"⁷.

وفي قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾⁸،

"خصَّ الله تعالى الوحداية، والرحمة بالذكر دون غيرهما من الصفات؛ لتذكير الكافرين الكاتمين
للحق بأن لا ملجأ أمامهم غير الله لاتقاء عذابه؛ ولترغيبهم بالتوبة، وعدم اليأس من فضله"⁹.

وفي قصة آدم عليه السلام، دعوة صريحة إلى عدم اليأس والقنوط، وفيها نشر لفضاء
واسع من الأمل والرجاء، فبعد أن بين الله سبحانه وتعالى حال آدم عليه السلام وزوجه مع
إبليس - لعنه الله - وكيف ارتكبا خطيئة بالأكل من الشجرة المشار إليها في الآيات، فتح لهم باب
التوبة قائلاً: ﴿فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾¹⁰.

¹ سورة الزمر، آية 53 .

² سورة الزمر، آية 53 .

³ الألويسي، روح المعاني، (61/4).

⁴ سورة النجم، آية 32 .

⁵ سورة الزمر، آية 53 .

⁶ الزحيلي، وهبة، التفسير المنير، (121/27).

⁷ المراغي، تفسير المراغي، (60/27).

⁸ سورة البقرة، آية 163 .

⁹ الزحيلي، وهبة، التفسير المنير، (59/2).

¹⁰ سورة البقرة، آية 37 .

و"خطيئة آدم كانت خطيئته الشخصية، والخلص منها كان بالتوبة المباشرة في يسر وبساطة، وخطيئة كل ولد من أولاده خطيئة كذلك شخصية، والطريق مفتوح للتوبة في يسر وبساطة، تصور مريح صريح، يحمل كل إنسان وزره، ويوحي إلى كل إنسان بالجهد والمحاولة وعدم اليأس والقنوط"¹.

وفي غزوة أحد، وبعد أن تراجع قسم كبير من المسلمين، وانهزموا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنزل الله عفوه ومغفرته عليهم، ليس هذا فقط؛ بل أعاد ذكر المغفرة والعفو مرة ثانية، وفي هذا تأكيد لطمع المذنبين في عفوه تعالى ذكره، ومنعاً لهم عن اليأس، وتحسين للظنون بأتم وجه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ هَلْ أَتَى عَلَى الْآخِذِينَ بِاللَّيْئِيسِ مِنَ الْأَمْرِ وَتَنْزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّنْ بَعْدَ مَا أَرْسَلَكُمْ مَا تُحِبُّونَ حَتَّىٰ آتَاكُمْ مِّنْ يُّرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾²، ثم كرر عفوه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾^{3،4}.

ومن الآيات التي اقترن فيها ذكر العقوبة مع الرحمة، قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾⁵، وتحت هذه الآية يقول ابن كثير: "وهذا من باب قرن الرحمة مع العقوبة؛ لئلا يحصل اليأس، فيقرن تعالى بين الترغيب، والترهيب كثيراً؛ لتبقى النفوس بين الرجاء، والخوف"⁶.

¹ قطب، في ظلال القرآن، (61/1).

² سورة آل عمران، آية 152 .

³ سورة آل عمران، آية 155 .

⁴ انظر: الألوسي، روح المعاني، (99/4).

⁵ سورة الأعراف آية 167 .

⁶ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (260/2).

فالإنسان عندما يقع في قلبه، ويتيقن: أن الله واسع المغفرة، وأنه شديد العقاب، يمضي في حالة وسط بين الخوف، والرجاء، لا يسيطر عليه الخوف، فيقع في اليأس من رحمة الله، ولا يطغى الرجاء فيقع في الأمن من مكر الله، ففي قوله تعالى: ﴿يَتَىٰ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ¹ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ²، يقول الشوكاني: "أي: أخبرهم يا محمد أني أنا الكثير المغفرة لذنوبهم، الكثير الرحمة لهم، كما حكمت به على نفسي: إن رحمتي سبقت غضبي...، ثم إنه سبحانه لما أمر رسوله بأن يخبر عباده بهذه البشارة العظيمة، أمره بأن يذكر لهم شيئاً مما يتضمن التخويف والتحذير؛ حتى يجتمع الرجاء والخوف، ويتقابل التبشير والتحذير؛ ليكونوا راحين خائفين، فقال: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾، أي: الكثير الإيلاء، وعندما جمع الله لعباده بين هذين الأمرين، من التبشير والتحذير، صاروا في حالة وسطا بين اليأس والرجاء، وخير الأمور أوساطها، وهي القيام على قدمي الرجاء والخوف، وبين حالتي الأُنس والهيبة².

وبعد هذه الجولة العلاجية الطويلة لداء اليأس، يتبين أن خط الدفاع الأول، والبارز في قضية العلاج هو: الإيمان القوي الصادق، النابع من قلب متصل بالله عز وجل، ويندرج تحت هذا الإطار بقية الأطر العلاجية، فالإنسان عندما يرتفع منسوب الإيمان واليقين لديه، تتحسن علاقته بخالقه وتعتدل، فيزداد توكله عليه، ويقوى حسن ظنه به سبحانه وتعالى، وتعمق لديه قضية الإيمان بالقضاء والقدر، فيتوجه إلى الله بالدعاء، والاستغفار، وهذا كله من شأنه أن يرفع مستويات الأمل، ورجاء المغفرة والرحمة من الخالق عز وجل، ويضع الإنسان في حصن منيع، لا تقوى عوامل الهدم من يأس، وحزن، واكتئاب، وقلق، على الفتك به، أو تقويض بنيانه، فيعيش حالاً وسطاً، بين الخوف من عذاب الله، والطمع في مغفرته ورضوانه.

وهذه المحطات العلاجية، والوقفات المضيئة، يمكن أن تستخدم كسبل وقاية، وأساليب حماية، تقوم بتحصيلين المسلم، وحمايته قبل الوقوع في شباك اليأس والإحباط.

¹ سورة الحجر، الآيتان، (50،49).

² الشوكاني، فتح القدير، (134/3)، بتصرف.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبفضله وكرمه تُقَبَّل الطاعات، أحمده سبحانه على ما يسرّ وأعان، ودبّر وألن، وأصلي وأسلم وأبارك على إمام الدعاة وسيد الأخيار، معلم الناس الخير، وعلى آله وصحبه الكرام، وبعد.

فإنه من المفيد في ختام هذه الدراسة، وبعد التجوال والتطواف في كتب التفسير وكتب الأخلاق فيما يتعلق بموضوع الدراسة، أن تورد الباحثة أهم النتائج التي تم التوصل إليها:

1 - كل ما جاء في القرآن الكريم من يأس فهو بمعنى القنوط إلا آية الرعد ﴿أَفَلَمْ يَأْيَسِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَن لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ ، جاءت بمعنى: العلم.

2- من صور اليأس الواردة في القرآن الكريم: اليأس من رحمة الله، وهو يعد من باب سوء الظن بالله، ويطلق عليه اليأس المذموم، وبالمقابل هناك يأس محمود، وهو اليأس مما في أيدي الناس، وقطع الرجاء بهم، ولكنه لم يذكر في القرآن الكريم، وإنما ورد ذكره في ثنايا كتب الأخلاق والزهد والحديث.

3- من صور اليأس الواردة في القرآن الكريم: يأس اليهود والكفار والمنافقين ومن تخلق بأخلاقهم وحذا حذوهم من الآخرة؛ أن يرحمهم الله فيها ويغفر لهم.

4- يأس الكفار من هزيمة دين الله، والصدّ عنه، يُعدُّ بشاراً ووعداً من الله سبحانه وتعالى بنصرة هذا الدين، ونصرة نبيه الكريم، وعباده المؤمنين، ويعد دافعاً قوياً للمسلمين في طريق محاربتهم لأعداء الدين، في الوقت الذي تزول فيه خشيتهم من القلوب؛ بسبب ضعفهم الناتج عن يأسهم من النيل من دين الله.

5- اليأس من الحيض يؤدي بطبيعة الحال إلى اليأس من الإنجاب، وهذه مرحلة توحى بالضعف والذبول والتراجع العاطفي.

6 - الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد يعتر بهم الهم والحزن والضيق، ولكن لا يمكن أن يصلوا إلى مرحلة اليأس الحقيقي، ولكن الذي حصل، ويمكن أن يحصل هو يأس الأنبياء من إيمان أقوامهم.

7 - هناك علاقة وثيقة، وتلازم قوي بين الكفر واليأس.

8 - ارتكاب المعاصي والذنوب، كفيل بأن يوقع الإنسان في أوهام اليأس والقنوط، في حال عدم توبته، وعدم رجوعه إلى الله سبحانه وتعالى.

9 - الابتلاءات والمحن محطات صعبة في مسار الحياة، قد توقع صاحبها في اليأس والقنوط، وكلما ازداد منسوب الإيمان في النفس، واشتد تغلغله في جنباتها، كان استيعاب النفس للابتلاء أشد، وصبرها عليه أعمق.

10 - من أهم سبل العلاج التي تقي الإنسان شرور اليأس والاكتئاب: الإيمان الصادق المتمثل بالصبر والعمل الصالح.

11 - تدور سبل الوقاية والعلاج من اليأس حول التوكل على الله سبحانه وتعالى، والإيمان بالقضاء والقدر على الوجه الصحيح، والالتجاء إليه سبحانه بالذكر والدعاء، والاستجابة لأمره بالتمسك بالأمل والرجاء، كل هذا موشح بحسن الظن بالله عز وجل، وتوقع الخير منه دائماً في كل الظروف وفي كل الأوقات.

12 - النهي عن اليأس والقنوط يعد أسلوباً من أساليب القرآن الكريم في علاج اليأس، واستجابة المؤمن لهذا الأسلوب، تعد خير دواء، وخير علاج لمرض اليأس، وشروره.

13 - من أساليب القرآن الكريم التي من شأنها أن تحد من ظاهرة اليأس والقنوط: إيراد الآيات الكثيرة التي تبين سعة رحمة الله بعباده، وتوبته عليهم، وأن إيمان العبد بهذه الرحمة الواسعة كفيل بأن يضع الإنسان في حالة وسط بين الخوف والرجاء، فيكون أبعد ما يكون عن اليأس.

المصادر

مسرد الآيات القرآنية

مسرد الأحاديث النبوية

مسرد الأعلام

مسرد الآيات القرآنية

الرقم	الآية	السورة	رقم الآية	الصفحة
1	{ اَلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ }	الفاتحة	7	71
2	{ فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ... }	البقرة	37	107
3	{ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ... }	البقرة	45	82
4	{ اَفْتَطْمَعُونَ اَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ... }	البقرة	75	55
5	{ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ اِلَّا... }	البقرة	111	34
6	{ وَوَصَّىٰ بِهَا اِبْرَاهِيْمَ بَنِيهِ... }	البقرة	132	104
7	{ اِنَّ اللّٰهَ مَعَ الصّٰبِرِيْنَ... }	البقرة	153	83
8	{ وَلَتَبْلُوْنَكُمْ بَشِيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ... }	البقرة	155	66
9	{ اِنَّا لِلّٰهِ وَاِنَّا اِلَيْهِ رٰجِعُوْنَ... }	البقرة	156	66
10	{ وَاَلِھٰکُمْ اِلٰھٌ وَّاحِدٌ... }	البقرة	163	107
11	{ اِذْ تَبَرَّآ الَّذِيْنَ اتَّبَعُوْا... }	البقرة	166	35
12	{ لَوْ اَنَّ لَنَا كُرَّةً فَنَتَّبَرًا... }	البقرة	167	36
13	{ وَاِذَا سَاَلْتَ عِبَادِيْ عَنِّيْ... }	البقرة	186	98
14	{ اُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ... }	البقرة	187	21، 22
15	{ وَاَقْتُلُوْهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوْهُمْ... }	البقرة	191	39
16	{ اَلشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ... }	البقرة	194	39
17	{ وَلَا تُلْقُوا بِاَيْدِيْكُمْ اِلَى التَّهْلُكَةِ... }	البقرة	195	103
18	{ حَتَّى يَقُوْلَ الرَّسُوْلُ... }	البقرة	214	49
19	{ قَالَ رَبِّ اَنْىٰ يَكُوْنُ لِيْ غُلْمٌ... }	آل عمران	40	47

الرقم	الآية	السورة	رقم الآية	الصفحة
20	{يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَتَّقُوا اللَّهَ...}	آل عمران	102	103
21	{لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا...}	آل عمران	127	21
22	{وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً...}	آل عمران	135	106
23	{وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا...}	آل عمران	139	104، 105
24	{وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ...}	آل عمران	144	70
25	{وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ...}	آل عمران	152	108
26	{لَيَبْرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ...}	آل عمران	154	105
27	{إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ...}	آل عمران	155	108
28	{الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ...}	آل عمران	173	87
29	{فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ...}	آل عمران	174	87
30	{إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ...}	النساء	48	89
31	{الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا...}	المائدة	3	37، 39
32	{خَنَ أَبْتَنُوا اللَّهَ وَأَحْبَبُوهُ...}	المائدة	18	34
33	{يَدُ اللَّهِ مَغْلُوبَةٌ...}	المائدة	64	34
34	{فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ...}	المائدة	68	56
35	{فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ...}	الأنعام	44	20
36	{وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ...}	الأعراف	56	88، 97
37	{فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ...}	الأعراف	79	54
38	{إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ...}	الأعراف	167	108

الرقم	الآية	السورة	رقم الآية	الصفحة
39	{ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ... }	الأَنْفَال	22	72
40	{ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا... }	الأَنْفَال	23	72
41	{ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ... }	التوبة	51	70
42	{ أَسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ... }	التوبة	80	36
43	{ وَءَاخِرُونَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ... }	التوبة	106	99
44	{ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا... }	التوبة	118	99
45	{ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ... }	يونس	71	87
46	{ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً... }	هود	9	79 ، 67
47	{ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَاءٍ... }	هود	10	79
48	{ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا... }	هود	11	79
49	{ وَأَوْحِيَ إِلَى نُوحٍ... }	هود	36	105
50	{ وَأَمْرَاتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ... }	هود	71	47
51	{ قَالَتْ يَبْئِئَنِي أَءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ... }	هود	72	47
52	{ إِنَّا إِذَا لَطَلِمُونَ... }	يوسف	79	45
53	{ فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا... }	يوسف	80	9 ، 36 ، 42 ، 44
54	{ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ... }	يوسف	83	96
55	{ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي... }	يوسف	86	86 ، 53
56	{ وَلَا تَتَيْسَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ... }	يوسف	87	14 ، 19 ، 27 ، 51 ، 55 ، 58 ، 79 ، 86 ، 101 ، 102

الرقم	الآية	السورة	رقم الآية	الصفحة
57	{ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ... }	يوسف	110	9، 48، 49، 50
58	{ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ... }	الرعد	28	101
59	{ أَفَلَمْ يَأْيَسِ الَّذِينَ ءَامَنُوا... }	الرعد	31	14
60	{ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ... }	إبراهيم	15	21
61	{ نَبِيِّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ... }	الحجر	49	109
62	{ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ }	الحجر	50	109
63	{ وَنَبِّئِهِمْ عَن ضَيْفِ إِبرَاهِيمَ }	الحجر	51	102
64	{ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَمًا... }	الحجر	52	102
65	{ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ... }	الحجر	53	102
66	{ قَالَ أَبَشْرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ... }	الحجر	54	102
67	{ قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ... }	الحجر	55	102، 103
68	{ وَمَنْ يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ... }	الحجر	56	19، 59
69	{ وَلَقَدْ نَعَلْنَاكَ يُضِيقُ... }	الحجر	97	83، 100
70	{ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ... }	الحجر	98	83، 100
71	{ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ... }	الحجر	99	83، 100
72	{ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ... }	النحل	97	78
73	{ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ... }	الإسراء	83	19، 59
74	{ فَلَعَلَّكَ بِنَجْعِ نَفْسِكَ... }	الكهف	6	55
75	{ وَرَأَى الْمَجْرُمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا... }	الكهف	53	36

الرقم	الآية	السورة	رقم الآية	الصفحة
76	{ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي... }	مريم	4	96
77	{ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي... }	مريم	5	96
78	{ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ... }	مريم	6	96
79	{ وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ... }	طه	111	21، 59
80	{ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي... }	طه	124	101
81	{ فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ... }	طه	130	100
82	{ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ... }	الأنبياء	87	100
83	{ وَكَذَلِكَ نُشَجِّي الْمُؤْمِنِينَ... }	الأنبياء	88	100
84	{ مَنْ كَانَ يَظُنُّ... }	الحج	15	40
85	{ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِن عُدْنَا... }	المؤمنون	107	35
86	{ أَحْسَبُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ... }	المؤمنون	108	63
87	{ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ... }	النور	60	46
88	{ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا... }	الفرقان	48	30
89	{ لَعَلَّكَ بِنِعْمِ نَفْسِكَ }	الشعراء	3	55
90	{ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ... }	النمل	62	97
91	{ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ... }	العنكبوت	23	15، 28، 58، 60، 72
92	{ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي... }	العنكبوت	26	54
93	{ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ... }	العنكبوت	45	84
94	{ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ... }	الروم	12	62

الرقم	الآية	السورة	رقم الآية	الصفحة
95	{وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ...}	الروم	13	62
96	{وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً...}	الروم	36	19، 69، 93
97	{أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ...}	الروم	37	93
98	{اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ...}	الروم	48	32
99	{وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلِ أَنْ يُنزَلَ...}	الروم	49	32
100	{فَانظُرْ إِلَىٰ ءَاثِرِ رَحْمَتِ اللَّهِ...}	الروم	50	30
101	{وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ...}	السجدة	12	35
102	{ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ...}	فاطر	32	90
103	{وَإِن مِّنْ شَيْعَتِهِ لِبِرَاهِيمَ}	الصافات	83	54
104	{إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}	الصافات	84	54
105	{إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ...}	الصافات	85	54
106	{أَيَفْكَاءَ إِلَهَةٍ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ}	الصافات	86	54
107	{فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ}	الصافات	87	54
108	{فَنظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ}	الصافات	88	54
109	{فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ}	الصافات	89	54
110	{فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ}	الصافات	90	54
111	{ثُمَّ تَلَيْنُ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبَهُمْ...}	الزمر	23	101
112	{قُلْ يٰعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا...}	الزمر	53	17، 18، 28، 64، 88، 102، 107
113	{قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا آتَيْنِي...}	غافر	11	35

الرقم	الآية	السورة	رقم الآية	الصفحة
114	{وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَعُوْسُ قَنُوطٌ...}	فصلت	49	19، 23، 24، 61، 67، 68
115	{وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَدُو دُعَاءٍ ...}	فصلت	51	68
116	{وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ...}	الشورى	28	31
117	{إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ...}	الزخرف	74	61
118	{لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ}	الزخرف	75	61
119	{وَنَادُوا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا ...}	الزخرف	77	63
120	{وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ...}	محمد	2	81
121	{وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ}	الذاريات	22	93
122	{فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ...}	الذاريات	28	47
123	{فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صِرَةٍ ...}	الذاريات	29	47
124	{إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ...}	النجم	32	107
125	{مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ...}	الحديد	22	92
126	{لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ...}	الحديد	23	92
127	{يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا...}	المتحنة	13	33، 71، 75
128	{وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ...}	الطلاق	3	85
129	{وَأَلْتَمِسْ مِنْ الْمَحِيضِ ...}	الطلاق	4	45
130	{إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا}	المعارج	19	24، 82
131	{إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا}	المعارج	20	24، 82
132	{وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا}	المعارج	21	24، 82

الرقم	الآية	السورة	رقم الآية	الصفحة
133	{إِلَّا الْمُصَلِّينَ}	المعارج	22	82
134	{وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ}	المعارج	23	82
135	{وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ}	المعارج	24	82
136	{لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ}	المعارج	25	82
137	{وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيَّوْمِ الدِّينِ}	المعارج	26	82
138	{وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ...}	المعارج	27	82
139	{إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ}	المعارج	28	82
140	{وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ}	المعارج	29	82
141	{إِلَّا عَلَىٰ أَرْوَاحِهِمْ...}	المعارج	30	82
142	{فَمَنْ أَتَّبَعِي وَرَاءَ ذَلِكَ...}	المعارج	31	82
143	{وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْنَتِهِمْ...}	المعارج	32	82
144	{وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ}	المعارج	33	82
145	{وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ سُحَّافُظُونَ}	المعارج	34	82
146	{وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا...}	نوح	24	53
147	{وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي...}	نوح	26	53
148	{إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا...}	نوح	27	53
149	{وَالضُّحَىٰ}	الضحى	1	90
150	{وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ}	الضحى	2	90
151	{فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا}	الشرح	5	91

الصفحة	رقم الآية	السورة	الآية	الرقم
91	6	الشرح	{ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا }	152
83	7	الشرح	{ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ }	153
83	8	الشرح	{ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب }	154

مسرد الأحاديث النبوية

الرقم	طرف الحديث	المرجع	الصفحة
1	إن الشيطان قد أيس أن يعبد المصلون	صحيح مسلم	41
2	إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مئة رحمة	صحيح البخاري	27
3	اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن	صحيح البخاري	98
4	عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير	صحيح مسلم	79
5	كان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم	صحيح البخاري	21
6	لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله	صحيح مسلم	104
7	ما أصاب أحداً قط هم ولا حزن	مسند أحمد بن حنبل	98
8	ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب	صحيح البخاري	70
9	يا بلال: أقم الصلاة، أرحنا بها	سنن أبي داود	84
10	يا غلام: إني أعلمك كلمات	سنن الترمذي	94
11	يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي	صحيح البخاري	95

مسرد الأعلام

الصفحة	العلم	الرقم
11	آرون بيك	1
7	الأصمعي: أبو سعيد عبد الملك بن قريب	2
8	إلياس بن مضر بن نزار، أبو عمرو	3
24	ابن جريج: أبو خالد، عبد الملك بن عبد العزيز	4
21	أبو سليمان السعدي المفسر	5
30	صفي الدين عبد المؤمن بن الخطيب	6
103	عبدة بن عمرو السلماني المرادي	7
8	عروة بن حزام العذري	8
74	قتادة بن دعامة بن قتادة، أبو الخطاب السدوسي	9
103	أبو قلابة: عبد الله بن زيد بن عمرو الجرمي	10
21	قيس بن صرمة	11
9	الليث بن رافع بن نصر بن سيار	12
32	محمد بن سيرين البصري، أبو بكر	13
8	اليربوعي: سحيم بن وثيل الرياحي الحنظلي	14
48	يزيد بن القعقاع المدني	15

قائمة المراجع والمصادر

ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم الجزري (ت: 630هـ)، اللباب في تهذيب الأنساب، دار صادر - بيروت، (طبعة سنة 1400هـ/1980م).

الأندروني، أحمد بن محمد، طبقات المفسرين، تحقيق: سليمان بن صالح الخزي، مكتبة العلوم والحكم - السعودية، (ط1/1417هـ/1997م).

الأزهري، أبو منصور، محمد بن أحمد (ت: 370هـ)، تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي - بيروت، (ط1/2001م).

الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد (ت: 502هـ)، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة - لبنان، (بدون ذكر الطبعة ولا سنة النشر).

الألباني، محمد ناصر الدين، (ت: 1420هـ)، الجامع الصغير وزيادته، المكتب الإسلامي - بيروت.

السلسلة الصحيحة، مكتبة المعارف - الرياض، (بدون ذكر الطبعة ولا سنة النشر).

الآلوسي، أبو الفضل محمود (ت: 1270هـ)، روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي - بيروت، (بدون طبعة ولا سنة نشر).

البخاري، أبو عبد الله، محمد بن إسماعيل (ت: 256هـ)، صحيح البخاري، الموسوم بـ(الجامع الصحيح المختصر)، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير - بيروت، (ط3/1407هـ/1987م).

البخاري، علاء الدين عبد العزيز، كشف الأسرار عن أصول فخر الإسلام البزدوي، تحقيق: عبد الله محمود محمد عمر، دار الكتب العلمية - بيروت، (طبعة سنة 1418هـ/1997م).

البغوي، الحسين بن مسعود بن محمد،(ت:516هـ)، معالم التنزيل في التفسير، تحقيق: خالد عبد الرحمن العك، دار المعرفة-بيروت، (بدون طبعة ولا سنة نشر).

البقاعي أبو الحسن، برهان الدين إبراهيم بن عمر (ت:885هـ)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية - بيروت، طبعة سنة (1415هـ/1995م).

البيضاوي، عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي (ت:685هـ)، تفسير البيضاوي الموسوم بـ(أنوار التنزيل وأسرار التأويل)، دار الفكر - بيروت (بدون طبعة ولا سنة نشر).

البيهقي، أبو بكر، أحمد بن الحسين بن علي، (ت:458هـ)، السنن الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز - مكة المكرمة، (طبعة سنة 1414هـ/1994م).

الترمذي، أبو عيسى، محمد بن عيسى السلمي، (ت:279هـ)، سنن الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي - بيروت، (بدون ذكر الطبعة ولا سنة النشر).

التستري، أبو محمد، سهل بن عبد الله، تفسير التستري، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية - بيروت، (ط1/1423هـ).

توفيق، محمود، شذرات الذهب دراسة في البلاغة القرآنية، (ط1/1422هـ).

الثعالبي، أبو زيد، عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف (ت:875هـ)، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي للطبوعات - بيروت (بدون طبعة ولا سنة نشر).

الجزائري، أبو بكر، جابر بن موسى، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة، (ط5/1424هـ/2003م).

عقيدة المؤمن، دار المنار، (بدون ذكر الطبعة ولا سنة النشر).

ابن الجزري، شمس الدين، محمد بن محمد بن يوسف، (ت: 833هـ)، النشر في القراءات العشر، تحقيق: علي محمد الضباع، المطبعة التجارية الكبرى، (بدون ذكر الطبعة ولا سنة النشر).

ابن جني، أبو الفتح، عثمان، (ت: 392هـ)، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، علم الكتب - بيروت، (بدون ذكر الطبعة ولا سنة النشر).

ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت: 597هـ)، زاد المسير في علم التفسير، المكتب الإسلامي - بيروت (ط3/1404هـ).

نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، تحقيق: محمد عبد الكريم كاظم الراضي، مؤسسة الرسالة - بيروت، (ط1/1404هـ / 1984م).

ابن الحاجب، أبو عمرو، عثمان بن عمر الدويني، (ت: 646هـ)، الشافية في علم التصريف، تحقيق: حسن أحمد العثمان، المكتبة المكية - مكة، (ط1/1415هـ/1995م).

الحاكم، أبو عبد الله، محمد بن عبد الله النيسابوري، (ت: 405هـ)، المستدرک علی الصحیحین، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، (ط1/1411هـ/1990م).

ابن حبان البستي، أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد (ت: 354هـ)، روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية - بيروت - (طبعة سنة 1397 / 1977).

ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي العسقلاني (ت: 852هـ)، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل - بيروت (ط1/1412هـ/1992م).

فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق: عجب الدين الخطيب، دار المعرفة - بيروت، (بدون طبعة ولا سنة نشر).

ابن حزام، عروة، ديوان عروة بن حزام، تحقيق: القوال، أنطوان محسن، دار الجيل - بيروت،
(ط1/1416هـ/1995م).

حقي، إسماعيل بن مصطفى، (ت:1127هـ)، تفسير روح البيان، دار إحياء التراث العربي -
بيروت، (بدون ذكر الطبعة ولا سنة النشر).

ابن أبي الصلت، الحكم، ديوان الحكم بن أبي الصلت، (بدون ذكر الدار ولا الطبعة ولا سنة
النشر).

الحموي، ياقوت بن عبد الله، (ت:626هـ)، معجم الأدباء، دار الكتب العلمية - بيروت،
(ط1/1411هـ/1991م).

ابن حنبل، أحمد، (ت:241هـ)، مسند الإمام أحمد بن حنبل، مؤسسة قرطبة - مصر، (بدون
ذكر الطبعة ولا سنة النشر).

أبو حيان، محمد بن يوسف الأندلسي، (ت:745هـ)، البحر المحيط، تحقيق: الشيخ عادل عبد
الموجود، وآخرون، دار الكتب العلمية - بيروت، (ط1/1422هـ/2001م).

الخازن، علاء الدين علي بن محمد، (ت:741هـ)، تفسير الخازن الموسوم بـ (لباب التأويل
في معاني التنزيل)، دار الفكر - بيروت، (طبعة سنة 1399هـ/1979م).

الخطيب، عبد الكريم، التفسير القرآني للقرآن، دار الفكر العربي - القاهرة، (بدون ذكر الطبعة
ولا سنة النشر).

ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد، (ت:681هـ)، وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان،
تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة - لبنان، (بدون ذكر الطبعة ولا سنة النشر).

أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، سنن أبي داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد
الحميد، دار الفكر - بيروت، (بدون ذكر الطبعة ولا سنة النشر).

دروزة، محمد عزّت، التفسير الحديث، دار إحياء الكتب العربية - القاهرة، (طبعة سنة 1383هـ).

ابن دريد، محمد بن الحسن الأزدي، (ت:321هـ)، المطر والسحاب، (بدون ذكر الدار ولا الطبعة ولا سنة النشر).

الذهبي، أبو عبد الله، محمد شمس الدين، (ت:748هـ)، تذكرة الحفاظ، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى.

طبقات القرّاء، تحقيق: أحمد خان، (ط1/1418هـ/1997م).

الكبائر، مطبعة الأنوار المحمدية - القاهرة، (بدون طبعة ولا سنة نشر).

الرازي، فخر الدين محمد بن عمر التميمي، المعروف بابن الخطيب الشافعي، (ت:606هـ)، التفسير الكبير الموسوم بـ(مفاتيح الغيب)، دار الكتب العلمية - بيروت، (ط1/1421هـ/2000م).

الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر (ت 721هـ)، مختار الصحاح، تحقيق: محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون - بيروت، (طبعة سنة : 1415هـ / 1995م).

ابن رجب، أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد الحنبلي (ت:795هـ)، جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باحس، مؤسسة الرسالة - بيروت، (ط7/ 1417هـ / 1997م).

الذيل على طبقات الحنابلة، تحقيق: عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، مكتبة العبيكان - الرياض، (ط1/ 1425هـ/2005م).

رضا، محمد رشيد، (ت:1354هـ)، تفسير القرآن الحكيم، الموسوم بـ(تفسير المنار)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، طبعة سنة(1990م).

الرضي، محمد بن الحسن الاسترابادي، (ت: 686هـ)، شرح شافية ابن الحاجب، تحقيق: محمد نور الحسن، محمد الزفزاف، محمد يحيى عبد الحميد، دار الكتب العلمية - بيروت، (بدون ذكر الطبعة ولا سنة النشر).

الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني (ت 1301هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس، دار الهداية (بدون ذكر الطبعة ولا سنة النشر).

الزحيلي، وهبة بن مصطفى، التفسير المنير، دار الفكر - بيروت، طبعة سنة (1418هـ).

الزركشي، أبو عبد الله، محمد بن بهادر بن عبد الله (ت: 794هـ)، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة - بيروت، طبعة سنة (1391هـ).

الزركلي، خير الدين بن محمود بن علي الدمشقي (ت: 1396هـ)، الأعلام، دار العلم للملايين - بيروت، (ط5/1980).

الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر، (ت: 538هـ)، الكشاف عن حقائق التنزيل وعلوم القرآن، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، (بدون طبعة ولا سنة نشر).

المفصل في صنعة الإعراب، تحقيق: د. علي بو ملحم، مكتبة الهلال - بيروت.

ابن أبي زمنين، محمد بن عبد الله، (ت: 399هـ)، تفسير القرآن العزيز، تحقيق: أبو عبد الله حسين بن عكاشة، محمد بن مصطفى الكنز، دار الفاروق الحديثة - القاهرة، (ط1/1423هـ/2002م).

ابن زنجلة، أبو زرعة عبد الرحمن بن محمد، (ت: نحو: 403)، حجة القراءات، تحقيق: سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة - بيروت، (ط5/1418هـ).

الساعاتي، أحمد عبد الرحمن، (ت: 1378هـ)، بلوغ الأمان من أسرار الفتح الرباني، اعتنى به: حسان عبد المنان، بيت الأفكار الدولية، (بدون ذكر الطبعة ولا سنة النشر).

السبكي، علي بن عبد الكافي، الإبهاج في شرح المنهاج على منهاج الوصول إلى علم الأصول، تحقيق: جماعة من العلماء، (ط1/1404هـ)، دار الكتب العلمية - بيروت.

السعدي، عبد الرحمن بن ناصر (ت:1376هـ)، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: ابن عثيمين، مؤسسة الرسالة - بيروت (طبعة سنة 1421هـ/2000م).

الوسائل المفيدة للحياة السعيدة، مؤسسة النور، الرياض، طبعة سنة (1378هـ).

أبو السعود، محمد بن محمد العمادي، (ت:982هـ) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي - بيروت، (بدون طبعة ولا سنة نشر).

ابن أبي سلمى، زهير، ديوان زهير بن أبي سلمى، شرح: الأعلم الشنتمري، المكتبة التجارية - مصر (بدون طبعة ولا سنة نشر).

السمعاني، أبو المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار، (ت:489هـ)، تفسير القرآن، تحقيق: ياسر بن إبراهيم، وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن - السعودية، (ط1/1418هـ/1997م).

السهيلي، عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد (ت:581هـ)، الروض الأنف، تحقيق: عبد الرحمن الوكيل، دار النصر - القاهرة، (ط1/1387هـ/1967م).

ابن سيده، أبو الحسن، علي بن إسماعيل المرسي (ت:458هـ)، المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق: عبد الحميد هندراوي، دار الكتب العلمية - بيروت، (ط1/2000م).

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، (ت:911هـ)، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: سعيد المنذوب، دار الفكر - لبنان، (ط1/1416هـ/1996م).

همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تحقيق: عبد الحميد هندراوي، المكتبة التوفيقية - مصر، (بدون ذكر الطبعة ولا سنة النشر).

الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد بن المختار (ت:1393هـ)، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، تحقيق: مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر - بيروت، (طبعة سنة 1415هـ/1995م).

الشوكاني، محمد بن علي بن محمد (ت:1250هـ)، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، دار الفكر - بيروت (بدون طبعة ولا سنة نشر).

الصنعاني، عبد الرزاق بن همام، (ت:211هـ)، تفسير القرآن، تحقيق: د. مصطفى مسلم محمد، مكتبة الرشد - الرياض، (ط1/1410هـ).

الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب (360هـ)، المعجم الكبير، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي مكتبة الزهراء - الموصل ، (ط2/1404هـ/1983م).

الطبري، أبو جعفر، محمد بن جرير (ت: 310هـ)، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار الفكر - بيروت، طبعة سنة (1405هـ).

الطحاوي، أبو جعفر، أحمد بن محمد بن سلامة، (ت:321هـ)، العقيدة الطحاوية، دار ابن حزم - بيروت، (ط1/1416هـ/1995م).

الطغرائي، أبو إسماعيل، الحسين بن علي، (ت:513هـ)، ديوان الطغرائي، مطبعة الجوائب - القسطنطينية، (ط1/1300هـ).

طنطاوي، محمد يوسف، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، (بدون ذكر الدار ولا الطبعة ولا سنة النشر).

ابن عادل، أبو حفص، عمر بن علي الدمشقي، اللباب في علوم الكتاب، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية - بيروت ، (ط1/1419هـ/1998م).

ابن عاشور، محمد الطاهر (ت:1393هـ)، التحرير والتنوير، دار سحنون - تونس، (طبعة سنة 1997م).

عباس، فضل، التفسير أساسياته واتجاهاته، مكتبة دنديس - عمان، (ط1/1426هـ/2005م).
عبد الباقي، محمد فؤاد (ت:1388هـ)، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الفكر - بيروت (طبعة سنة 1407 هـ /1987م).

أبو عبيدة، معمر بن المثنى، (ت:210هـ)، مجاز القرآن، مكتبة الخانجي - القاهرة (بدون طبعة ولا سنة نشر).

العثيمين، محمد بن صالح (ت:1421هـ)، القول المفيد على كتاب التوحيد، مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الجديدة، (طبعة سنة 1423هـ).

ابن عطية، عبد الحق بن غالب الأندلسي، (ت:541هـ)، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية - بيروت، (بدون ذكر الطبعة ولا سنة النشر).

ابن عقيل، بهاء الدين، عبد الله، (ت: 769هـ)، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر - سوريا، (طبعة سنة 1405هـ/1985م).

علي بن أبي طالب، ديوان علي ، جمع وترتيب: عبد العزيز الكرم، (ط1/1409هـ/1988م).

ابن العماد، عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري، (ت:1089هـ)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، و محمود الأرناؤوط، دار بن كثير - دمشق، (ط1/1406هـ).

الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد، (ت:505هـ)، إحياء علوم الدين، دار المعرفة - بيروت، (بدون ذكر الطبعة ولا سنة النشر).

ابن فارس، أبو الحسن، أحمد بن فارس بن زكريا (ت: 395هـ)، **الصاحبي في فقه اللغة**،
(بدون ذكر الدار ولا الطبعة ولا سنة النشر).

معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر - بيروت، طبعة سنة
1399هـ/1979م).

الفرّاء، أبو زكريا، يحيى بن زياد (ت: 207هـ)، **معاني القرآن**، عالم الكتب - بيروت،
ط3/1403هـ - 1983م).

الفرّاهيدي، أبو عبد الرحمن، الخليل بن أحمد (ت: 175هـ)، **كتاب العين**، تحقيق: د مهدي
المخزومي، و د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، (بدون ذكر الطبعة ولا سنة
النشر).

الفيروز آبادي، مجد الدين بن يعقوب (817هـ)، **القاموس المحيط**، مؤسسة الرسالة - بيروت
(بدون ذكر الطبعة ولا سنة النشر).

ابن قدامة، أحمد بن عبد الرحمن المقدسي، (ت: 682هـ)، **مختصر منهاج القاصدين**، خرّج
أحاديثه وعلق عليه: عبد الله الليثي الأنصاري، دار الفكر - بيروت، طبعة
سنة 1408هـ/1987م).

القشيري، أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك (ت: 514هـ)، **تفسير القشيري**،
الموسوم بـ **(لطائف الإشارات)**، تحقيق: عبد اللطيف حسن عبد الرحمن، دار الكتب
العلمية - بيروت، (ط1/1420هـ - 2000م).

قطب، سيد (ت: 1386هـ)، **في ظلال القرآن**، دار الشروق - القاهرة (طبعة سنة
1401هـ/1981م).

القمي، نظام الدين، الحسن بن محمد، (ت: بعد 850هـ)، **غرائب القرآن ورغائب الفرقان**،
تحقيق: الشيخ زكريا عميران، دار الكتب العلمية - بيروت، (ط1/1416هـ/1996م).

ابن القيسراني، أبو الفضل محمد بن طاهر، (ت: 507هـ)، أطراف الغرائب والأفراد من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم للإمام الدارقطني، تحقيق: محمود حسن نصار، والسيد يوسف، دار الكتب العلمية - بيروت، (ط1/1419هـ/1998م).

ابن القيم، أبو عبد الله، محمد بن أبي بكر (أيوب) الزرعي، (751هـ)، الفوائد، دار الكتب العلمية - بيروت، (ط2/1393هـ/1973م).

مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي - بيروت، (ط2/1393هـ/1973م).

الكتبي، محمد بن شاکر بن أحمد (ت: 764هـ)، فوات الوفيات، تحقيق: علي محمد بن يعقوب الله وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية - بيروت، (ط1/2000م).

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر الدمشقي (ت: 774هـ)، تفسير القرآن العظيم، دار الفكر - بيروت (طبعة سنة 1401هـ).

الكلبي، محمد بن أحمد بن محمد، (ت: 741هـ)، التسهيل لعلوم التنزيل، دار الكتاب العربي - لبنان، (ط4/1403هـ/1983).

ماضي، جمال أبو العزائم، القرآن والصحة النفسية، (تأملات في الآيات القرآنية المتعلقة بالصحة النفسية)، (ط1/1414هـ/1994م).

الماوردي، أبو الحسن، علي بن محمد، (ت: 450هـ)، أدب الدنيا والدين، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الإيمان - المنصورة، (بدون ذكر الطبعة ولا سنة النشر).

تفسير الماوردي المسوم بـ (النكت والعيون)، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية - بيروت، (بدون ذكر الطبعة ولا سنة النشر).

المراغي، أحمد مصطفى (ت: 1364هـ)، تفسير المراغي، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده - مصر، (بدون ذكر الطبعة ولا سنة النشر).

مسلم، أبو الحسين بن الحجاج القشيري النيسابوري، (ت: 261هـ)، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، (بدون طبعة ولا سنة نشر).

معمرية، بشير، بحوث ودراسات في علم النفس، المكتبة العصرية - المنصورة، (ط1/2009م).

المنائي، محمد عبد الرؤوف (ت: 1031هـ)، فيض القدير شرح الجامع الصغير، المكتبة التجارية الكبرى - مصر، (ط1/1356هـ).

ابن منظور، أبو الفضل، محمد بن مكرم الإفريقي المصري (ت: 750هـ)، لسان العرب، دار صادر - بيروت، (ط1/1410هـ).

الميداني، عبد الرحمن حسن حبنكة، الأخلاق الإسلامية وأسسها، دار القلم - دمشق، (ط5/1420هـ/1999م).

النسائي، أبو عبد الرحمن، أحمد بن شعيب، سنن النسائي (المجتبى)، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب، (ط2/1406هـ/1986م).

النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود (ت: 710هـ)، تفسير القرآن الجليل المسمى بمدارك التنزيل وحقائق التأويل، تحقيق: الشيخ مروان محمد الشعار، دار النفائس - بيروت، (طبعة سنة 2005م).

النميسي، محمد عبد الحميد، وذلك في تحقيقه لكلام المقرئ، تقي الدين، أحمد بن علي، (ت: 845هـ)، إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، دار الكتب العلمية - بيروت، (ط1/1420هـ/1999م).

نوح، محمد، آفات على الطريق، دار الوفاء - المنصورة، (ط6/1420هـ/1999م).

أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل (ت: 395هـ)، الفروق اللغوية، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة - القاهرة، (بدون طبعة ولا سنة نشر).

النووي، أبو زكريا، يحيى بن شرف بن مري، (ت:676هـ)، صحيح مسلم بشرح النووي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، (ط2/1392هـ).

الواحدى، أبو الحسن، علي بن أحمد بن محمد، (ت: 468هـ)، أسباب النزول، تحقيق: كمال بسيوني زغول، دار الكتب العلمية - بيروت، (ط1/1411هـ/1991م).

الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم - دمشق، الدار الشامية - بيروت، (ط1/1415هـ).

الوطواط، أبو إسحاق، برهان الدين، محمد بن إبراهيم، (ت:718هـ)، مباهج الفكر ومناهج العبر، (بدون ذكر الدار ولا الطبعة ولا سنة النشر).

وكيع، أبو سفيان، ابن الجراح بن مليح بن عدي الرؤاسي، (ت:197هـ)، الزهد، (بدون ذكر الدار ولا الطبعة ولا سنة النشر).

<http://www.almtoon.com/show.php?id=29>

<http://www.bayan-alquran.net/forums/showthread.php?t=3255-125>

<http://www.cbtarabia.com>

<http://www.emanway.com/content/6677/>

http://www.hayatnafs.com/kadaya_nafsia_ijtema3ia/on-suicide.htm

**An-Najah National University
Faculty of Graduate Studies**

Despair (Quranic study)

**By
Fatima Ahmed Mahmud Al Haj Hasan**

**Supervised by
Dr. Mohsen Sameeh Al Khaldi**

**This Thesis is Submitted in Partial Fulfillment of the
Requirements for the Degree of Master of Fundamentals of
Islamic Law (Usol Al-Deen), Faculty of Graduate Student, An-
Najah National University, Nablus, Palestine.**

2011

Despair (Quranic study)
By
Fatima Ahmed Mahmud Al Haj Hasan
Supervised by
Dr. Mohsen Sameeh Al Khaldi

Abstract

This study is a Quranic one and a step towards the objective interpretation of the Holy Quran in which the researcher discussed the issue of Despair through verses from the Holy Quran. The study is divided into 4 chapters, an introduction and a conclusion.

In the introduction, the researcher talked about the importance of this study and highlighted its significance through discussing the global enmity and deception that the Islamic nation faces these days which yielded many difficulties and crises that increased depression and Despair among the Muslim population around the world.

In chapter one, the researcher discussed the definition of Despair in language, dictionary and in the Quranic context, while in the second chapter the researcher talked about the different faces of Despair and the position of prophets towards it.

In the third chapter, the researcher explained the reasons behind Despair and the punishment and destiny of hopeless people. The fourth chapter included an explanation of the possible ways of prevention and treatment that can protect the human being from the evils and negative impacts of Despair.

The researcher referred to interpretation books, Hadith, ethics books, language and translations to conduct her research with a special focus on interpretation books and the statements made by Muslim interpreters and scholars.

In the conclusion, the researcher included a number of results that the study yielded:

- 1- There is a close relationship between blasphemy (Kufr) and Despair and that the person who surrenders to Despair is the one whose heart is no longer filled with belief in God; he who becomes a disbeliever is the one who has become hopeless of his connection with Allah.
- 2- The mentioning of Despair in the Holy Quran came under the meaning of “Despair”, except in Al-Ra’ed verse where it came under the meaning of “Knowledge”.
- 3- Committing sins is enough to trick a human being into falling into the illusions of Despair and despair in case he does not repent and return back to Allah.

This document was created with Win2PDF available at <http://www.win2pdf.com>.
The unregistered version of Win2PDF is for evaluation or non-commercial use only.
This page will not be added after purchasing Win2PDF.